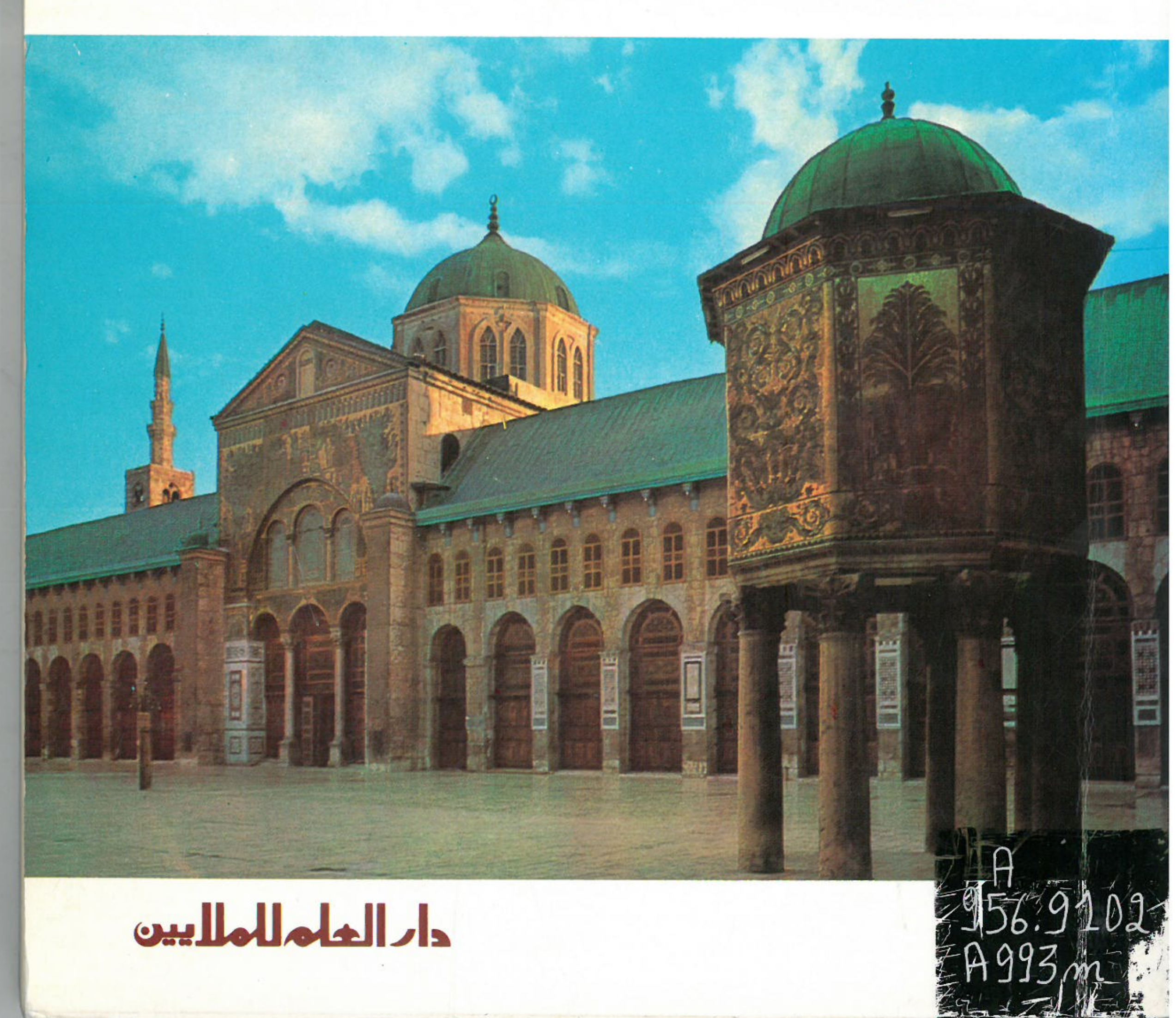
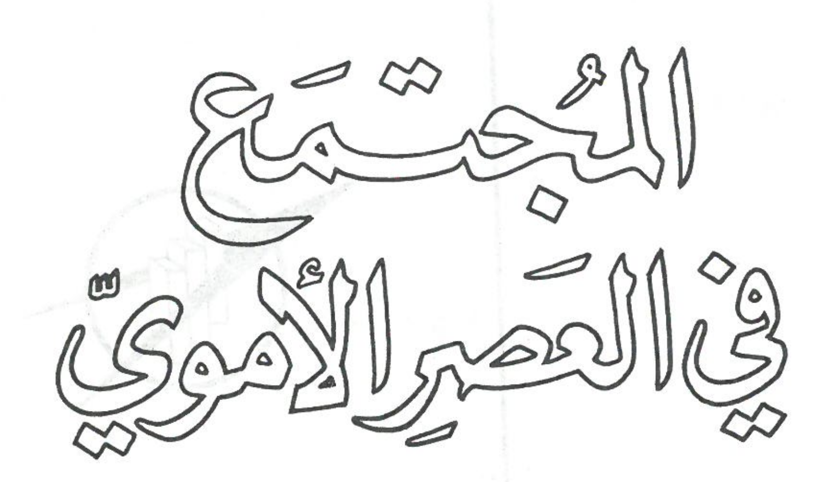
أُسَيْمة العَظْم

المُجتمَع في العَصرِ الأمويّ



دار العلم للملايين

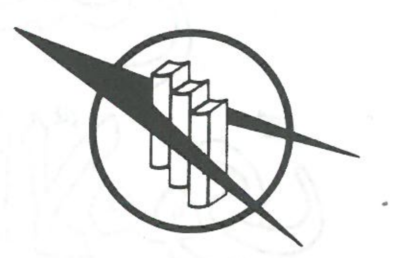
أُسَيْمة العَظْم



دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير ١٩٩٦

تصميم الغلاف: رفيف حربلي
خطّ الغلاف: مختار البابا

إهداء

إلى أولادي وأحفادي...

تقديم

إن هذا الكتاب الذي أقدمت السيدة أسيمة العظم على نشره وطلبت مني أن أقدّمه للقراء هو إحدى نتائج جهدها التعليمي عندما كانت طالبة في قسم التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت. وكنت حينئذٍ أدرِّس هذا القسم وأقوم بقسطي من إلقاء المحاضرات والإشراف على البحوث في موضوعاته. وقد حاولت السيدة أسيمة الاطلاع على البحوث التي وُضِعت ونُشِرت في الموضوع ذاته في المدة التالية لتقديم رسالتها الأصلية من أجل استيعاب النتائج العلمية المستجدّة ومواكبة البحث التأريخي الذي يجب أن يظل مستمرّاً ومتجدداً ومتقدّماً على الدوام.

وإذا نظرنا إلى هذا البحث في إطاره الواسع، وجدنا أنه يرمز إلى بعض الحقائق الأساسية التي يحسن بنا أن نتدبّرها ونجليها ونسيرَ على ضوئها في تطلّعاتنا الثقافية حاضراً ومستقبلاً، كي تأتي هذه التطلّعات قليلة الشوائب وعلى مستوى التحديات العسيرة التي تجابهنا.

إنه يرمز أولاً إلى جانبٍ من أهم جوانب تعليمنا الجامعي الذي غدا، بسبب العديد من العوامل التي تتحكّم فيها مختلف الخيارات التي نتخذها، محصوراً في أغلبه في دائرة «التلقين» أي في تقبّل المادة التي يختصرها الأستاذ من بعض المراجع ويفرض على الطلاب حفظها في ذاكرتهم وترديدها في الامتحانات التي يتقدمون إليها، دون أن تكون قد روَّضت عقولهم وغرست فيها بذور القدرات الذاتية لارتياد الحقيقة وبذل الجهود المقتضاة لبلوغها. إن هذه الجهود تتضمن، في ما تتضمن، التدرّب على تقدير البحث العلمي في «التعلّم» ـ لا «التعليم» ـ الجامعي واكتساب بعض مناقبه، ولو بشكل أولي، بالمعاناة

الذاتية والممارسة الهادفة. ومع أن النتائج العلمية التي يتوصل إليها الطالب قد لا تفي بمطالب البحث في الموضوع المختار، فإن تعرُّف هذه المطالب واختيار حجمها ونوعها، وتوليد العزم على قصدها ومعاناتها، هي ضرورة أساسية للتثقف الفردي والمجتمعي ولإعداد العناصر البشرية المؤهلة لإيقاف التدهور ولخوض معارك التحرر والنهوض.

أما المعنى الثاني الذي ترمز إليه هذه الرسالة فيتعلق بحقيقة التأريخ وبضرورة شمولها الحياة الماضية بكاملها. فقد ساد هذه الساحة لقرون طويلة، وما يزال، فهمٌ خاطىء لهذه الحقيقة، إذ يحصرها في بعض النواحي الظاهرة الحربيّة السياسيّة وما يتصل بهما متجاوزاً النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومنكبًّا في الوقت نفسه على سِيَر الحكام وغيرهم من الخاصة، ومهملاً الطبقة الأخرى التي تؤلف كثرة المجتمع. ونتيجة هذا الفهم الخاطىء تأتي صورة المجتمع مجزَّأة ومشوّهة لا تشمل كيان الماضي ولا تحيط بواقعه. ومما يدفع إلى هذا التوجه، أن مصادر التاريخ التي تقدم لنا مادته الأساسية مَشوبة أصلاً بهذا الخطأ الذي يطغى على التوجهات التاريخية ويتكرر وينتشر خلال العصور. ومن هنا كان من الضروري أن يلفت نظر الطلاب والرأي العام المثقف إلى سعة الحياة الماضية وشمولها وإلى ضرورة اختراق ساحاتها كلها، على رغم ما يعترض بعضها، ولعلها أهمها، من نواقص وعوائق.

وبسبب المصاعب الجمّة التي تسطو على التأريخ بعامة، وعلى نواحيه غير السياسية بخاصة، يتوجّب على السعي التاريخي الصحيح، وهنا المعنى الثالث الذي أرجو أن تدلّ عليه هذه الرسالة، أن يكون مستمرّاً ومتراكماً، فلا تملك أية خطوة من خطاه أن تدّعي بأنها بلغت الغاية المبتغاة أو أصابت حدّاً يصحّ الوقوف عنده، فهي لا تعدو أن تكون جهداً محدوداً في طريقٍ طويلة وشاقة، يستدعي جهوداً بالغة تالية تصححه أو تضيف إليه.. إن التصحيح والإضافة مغروسان في صلب التأريخ ما دامت ثمة مصادر لم تُكتشف أو لم تستثمر، وما دام النظر التأريخي معرّضاً للمراجعة والامتحان والتصويب بفعل

تفتّح العقل وثراء العلم. إن هذه الحقيقة تنطبق على العلوم قاطبةً ولكنها تَسِمُ العلوم الإنسانية [ومنها التأريخ] بوجهٍ خاص، نظراً لتعقّد مادّتها وغياب مصادرها أو اضطراب هذه المصادر في أحيان كثيرة.

وإذ أقدم هذه الرسالة يسرّني أن أهنىء مؤلِّفتها وأن أُعرب عن ثقتي بأن الرسالة تصدر عن وعي بهذه الحقائق الأساسية للسعي التاريخي، وتمثّل مرآةً صادقة بذلتها السيدة أسيمة العظم ودلالة على جهود أخرى يقتضى بذلها في المستقبل ضمن هذا الموضوع بالذات، ومن أجل إشاعة الوعي التأريخي الصحيح بوجه عام.

قسطنطين زريق

توطئة

«من وحي الماضي»

منذ نيف وأربعين عاماً كنت طالبة في الجامعة الأميركية ببيروت أدرس التاريخ والأدب العربي. وكان أستاذي حينذاك الدكتور قسطنطين زريق أطال الله بعمره. وإني لأذكر في هذه المرحلة من التعليم أنه كان يتوجب على الطالب كي يتخرج ويحمل شهادة بكالوريوس آداب أو علوم أن يتقدم بأطروحة عن المادة التي يتخصص فيها. فكان لا بد لي في السنة النهائية من دراستي أن أنتقي موضوعاً أعالجه كي أحصل على الشهادة. وكان أن اخترت موضوع (**المجتمع في العصر الأموي**)، وعرضت الفكرة على الدكتور زريق فرحب بها، وساعدني على انتقاء المراجع والمصادر التي ينبغي عليّ التنقيب فيها للحصول على أكثر المعلومات الممكنة حول الموضوع. وهكذا كان، فلبثت الأشهر الأخيرة من السنة الدراسية أثابر على مطالعة المصادر والغوص فيها. وكنت أجلس الساعات الطوال في «المكتبة الإسلامية» وأنا منكبة على هذه الكتب. فمن القرآن الكريم، إلى سيرة ابن هشام، إلى الطبري، والبخاري، وأبي الفرج الأصبهاني، وابن عبد ربه، ومقدمة ابن خلدون وسواها كثير. وتعمقت في دراسة كل ما يتعلق بالمجتمع الأموي بعيداً عن السياسة واستخلصت المواد التي تؤلف بمجموعها ما نسميه المجتمع.

وكان الدكتور زريق يشرف من فترة إلى أخرى على ما تجمّع لديّ من معلومات ويتفحصها، فينصحني بالإبقاء على بعضها والاستغناء عن البعض الآخر، ويوجهني إلى وضع الخطة للبحث والكتابة بطريقة علمية. وقد أشار عليّ

بالرجوع إلى بعض المصادر الأجنبية من فرنسية وإنكليزية التي اهتم أصحابها بتاريخ الأمويين فاستعنت بها على إتمام الرسالة.

وكانت فكرة تحويلها إلى كتاب تراودني منذ زمن، وفي إحدى زياراتي للدكتور زريق في بيروت عرضت عليه الفكرة فكان متجاوباً معي وأشار علي بتنقيحها، ووعدني إذا مضيت في طبع الكتاب أن يقدمه لي بنفسه فشكرته واتكلت على الله.

مقدمة

المجتمع في العصر الأموي

إن دراسة حياة المجتمع في عصر من العصور تتطلب كثيراً من الإمعان والتدقيق لا أظنهما يتوافران إلا للمؤرخ الذي يمكنه التعمّق والاستقصاء في البحث والتنقيب للوصول إلى غايته المنشودة. ومهما يكن من أمر، فإني حاولت جاهدة إبراز صورة للمجتمع الأموي علّها تعطي القارىء فكرة عن هؤلاء الأجداد.

ثم إني لست أنكر من جهة أخرى الصعوبات التي جابهتها في معالجتي لهذا الموضوع، خاصة وأن أهم المراجع التي اعتمدتها في دراستي لهذه الحقبة من التاريخ العربي وضعها مؤرخون أو أدباء جاءوا في القرنين الثاني والثالث بعد انقراض الدولة الأموية وعاشوا في كنف بني العباس الذين اغتصبوا الحكم من الأمويين وأسسوا على أنقاضه دولة دامت زمناً طويلاً، ازدهرت خلاله علوم كثيرة ومن ضمنها التاريخ والأدب. فوضعت في هذين العصرين كتب لا تحصى، إلا أنه من المؤسف أن أكثر هؤلاء المؤرخين أو الأدباء تشيّعوا آنذاك لبني العباس وتملّقوا لهم، فكانوا يمعنون في الطعن بأعدائهم الأمويين ويدسّون الأخبار على بعض خلفائهم وخاصتهم والمقرّبين منهم، وكان بعضها ملفّقاً أو مبالغاً فيه.

ماذا يمكننا أن نستخلص مما سبق؟ علينا أن نتحفظ ونأخذ الاحتياطات اللازمة قبل إبداء الرأي والحكم على الأمويين وعصرهم، وأن نتمعن جيداً في الأخبار وندقق بها فنروزها بميزان العقل والتبصر في ضوء الدقة العلمية وصدق

المراجع والمصادر، وأن نبتعد عن كل هوى أو غرض شخصي، ثم نصدر حكمنا النهائي عليهم.

على أنني أعود فأقول: إنه بالرغم من ذلك كله، لم يكن من المستبعد أن بعض الخلفاء الأمويين ـ ولم أقل كلهم ـ وسواهم من الطبقة الأرستقراطية وخاصَّة في الحجاز، كبني هاشم، وبني مخزوم، وبني الزبير من أعداء الدولة الأموية أو أشياعها قد سنّوا لأنفسهم مناهج غير تلك التي اقتضاها الإسلام، وسلكوا سبلاً حرّمها الشرع؛ ولم يكن هذا غريباً، بل بالعكس أرى أنه كان منتظراً إلى حدٍّ بعيد. فقد اجتمع لدى هؤلاء الأرستقراطيين شباب ومال وراحة وهي عوامل ثلاثة ما اجتمعت لدى طبقة من الناس أو شعب من الشعوب إلا وكانت نتيجتها كما سوف نرى.

الفصل الأول

١ ـ العائلة في الجاهلية

العائلة أساس المجتمع وقوامه، فهي نواته وبصلاحها يصلح وبفسادها يفسد. لذا يجدر بي قبل البحث عن الأسرة في العهد الأموي أن أستعرض حياة الأسرة العربية بصورة عامة قبل الإسلام.

كانت الأسرة العربية تضم الزوج وزوجته أو زوجاته وجواريه وجميع الأولاد، المتزوجين منهم وغير المتزوجين، والأحفاد وغيرهم من الأولاد الذين يتبنّاهم الأب. فالعائلة من هذه الناحية تشبه كافة أنواع الأسر لدى جميع الأمم القديمة.

ويظهر أن نظام العائلة قبل الإسلام لم يكن موطداً. والنوع السائد من الزواج عند العرب هو زواج الرجل من نساء قبيلته أو عشيرته، وعلى الأغلب من ابنة عمه. إلا أن هذا لم يكن يمنع الرجل من الزواج من غير بنات قبيلته. وفي هذه الحالة كانت الزوجة تلتحق بقبيلة زوجها. وهو المسيطر على شؤونها، ويحق له أن يتزوج غيرها سواء بالاتفاق مع ذويها على مهر محدّد، أو بالسبي الذي طالما حدث في الغزوات (غزو قبيلة لأخرى). وكثيراً ما كان الرجل يرغب في الزواج من امرأة تنتمي إلى قبيلة غير قبيلته، فإذا كانت هذه الزوجة أسمى منه نسباً أو أكثر مالاً التحق بها، وتمتع بحماية أهلها وحق له التصرف بأموالها. وفي مثل هذا الزواج ينتمي الولد إلى عائلة أمه فيفتخر بخؤولته أكثر منه بعمومته. فنرى كثيراً من الشخصيات الكبيرة في الجاهلية يرجع نسبهم إلى أمهم كعمرو بن هند ملك الحيرة، وشرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن عفراء. وهنالك عادة شائنة كانت متفشية في الجاهلية، وهي أن الأولاد كانوا يرثون نساء آبائهم، فيحق لهم

الزواج منهن بعد وفاة أزواجهن. وهذه عادة استنكرها الإسلام ونهى عنها القرآن الكريم وحرّمها فقال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1].

ويخبرنا الرواة أنه كان عند العرب أنواع أخرى من الزواج، كزواج الضيزن والبغايا والاستبدال لا سبيل إلى تفصيلها هنا. على أنه لا بد من الإشارة إلى أن هذه الأنواع من التزوج كانت شاذة وقليلة وربما رجعت إلى أقدم عصور الجاهلية. أما في الحقبة التي سبقت الإسلام بقليل، والتي يعتبرها بعض المؤرخين أوائل النهضة الاجتماعية، فالزواج السائد في ذلك الوقت كان المسيطر فيه رجلاً واحداً، وله حريته في أن يتّخذ من الزوجات ما شاء بلا تحديد. وفي هذه الحالة يبقى الطلاق في يد الرجل وبإمكانه إعادة زوجته إلى أهلها متى أراد.

على أنه بالرغم من ذلك كله كانت المرأة تحظى بالاحترام لدى بعض القبائل المتحضرة، وكثيراً ما كانت تقوم بدور هامٍّ في حياتها. والغالب أن الأب كان يستشير بناته قبل تزويجهن. فمما يُروى عن الحارث بن عوف أنه طلب إلى أوس بن حارثة أن يزوجه إحدى بناته فعمد هذا الأخير إلى مشورتهن[2]. وكما أنه كان للمرأة حق في اختيار الزوج كذلك كان يحق لها أن تطلقه متى أرادت كما زعم أبو الفرج[3] الأصبهاني، وكان طلاقهن كما رواه صاحب الأغاني: «أنهن كن يقمن في بيت من شعر، فإذا كان بابه قبل المشرق حوّلنه قِبلَ المغرب، وإن كان بابه نحو اليمن حوّلنه نحو الشام، فإذا رأى ذلك الزوج علم أنه طالق[4] لا محالة، كما حدث لحاتم الطائي مع زوجته ماوية»[5]. وأظن أن هذه المنزلة التي

(١) سورة النساء، الآية ٢٢.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٩، ص ١٤٩.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٠٦.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٠٦.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٠٦.

احتلتها بعض النساء في الجاهلية لم تكن تتيسر إلا للشريفة المنتمية إلى قبيلة ذات مكانة رفيعة عند العرب.

هذا وبالرغم مما ورد يحق لي القول: إن علاقة الرجل بالمرأة أحياناً كانت مبنية على أسس شريفة يغلب عليها الحب والإخلاص. ولدينا في كتب التاريخ والأدب خير أمثلة على الحب الشريف السامي العميق الذي كان لبني عذرة ولا عهد لنا به عند بقية الشعوب. وكانت الغاية من الزواج تأسيس عائلة وإكثار النسل. وما عادة تعدد الزوجات في نظري إلا وسيلة يقصد منها إكثار الذرية. فالحرب أمر شغل العرب منذ أقدم العصور وما قوة القبيلة واعتزازها وافتخارها إلا بوفرة عدد أفرادها من المحاربين، وهذا هو السبب في تفضيل الذكور عند العرب على الإناث.

أما عادة وأد البنات فلم تكن ناتجة عن احتقار للمرأة بل خوفاً من الفقر والفاقة. وقد استهجن الإسلام هذه العادة ومنعها، إذ ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾[1].

هذا ما كانت عليه الأسرة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام نظمها وأزال عنها الفوضى، فصار للعائلة حدود معينة، إذ أبطل الأنواع الشاذة للزواج التي ذكرتها، ومنح المرأة كثيراً من الحقوق التي كانت محرومة منها في الجاهلية، وحدد الزوجات: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلاَثَ ورُبَاعَ، فإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[2].

وكانت تعاليم الإسلام ترمي إلى تشكيل أسرة قوامها السلام والاستقرار وتقوية رابطة التضامن بين أفرادها، كما يظهر جليًا من الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ

(١) سورة الإسراء، الآية ٣١.
(٢) سورة النساء، الآية ٣.

أن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

٢ ـ العائلة في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين

كانت العائلة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين تتألف من الزوج والزوجة أو الزوجات والأولاد. وقد شاع تعدد الزوجات في ذلك العهد خاصّة أن الإسلام قد أقره ضمن شروط، فاقتدى الناس برسوله واتخذ الصَّحابة أمثال عمر والزبير وسعد بن أبي وقاص عدة نساء.

وكان الزوج هو المسيطر على شؤون الأسرة يحميها بقوّته ويذود عنها وينفق عليها ما كسبت يداه، وللزوجة مقامها في العائلة، وقد أوصى ﷺ بحسن معاملة المرأة فقال: «استوصوا بالنِّساء خيراً» و«اتقوا الله في النساء».

وكان للأم المقام الأفضل في العائلة، وقد حض على ذلك ﷺ، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي؟ فقال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أبوك»[٢].

ولم تختلف العائلة في زمن الخلفاء الراشدين عما كانت عليه زمن الرسول، وإنما كانت بوادر التسري تنتشر شيئاً فشيئاً لا سيما بعد الفتوحات الواسعة زمن الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بسبب توفّر النساء السبايا. على أن هذا لا يعني أن التسري لم يكن منتشراً قبل الإسلام وفي زمن النبي ﷺ، إذ كان اتخاذ الأخدان شائعاً وهذا ما حرمه الإسلام واستعاض عنه بالتسرِّي، وهو أن يتزوج العربي من النساء السبيّات اللاّتي تملّكهن بالفتوحات، وفي القرآن الكريم إشارة صريحة إلى ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾[٣].

---

(١) سورة الروم، الآية ٢١.
(٢) صحيح البخاري، ج ٨، ص ٢.
(٣) سورة النساء، الآية ٢٤.

٣ ـ العائلة في العصر الأموي

«أ» الـزواج

كانت أكثر نساء العصر الأموي وخاصة الشريفات منهن يبرزن سافرات عن وجوههن، فكان يتسنى للرجال رؤيتهن، فإذا ما أعجبت أحدهم امرأة وودَّ الزواج منها خطبها إلى نفسها. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذا كان يحدث لبعض النساء ذوات المكانة فقط. فقد روي عن عبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمٰن بن عوف أنه طلب لأحد قضاة البصرة ابنته فقال له: إنها امرأة لا يفتات عليها أمرها فاخطبها لنفسها[١].

والغالب أن الرجل كان يطلب الفتاة من أبيها أو أحد ذويها كما فعل عبد الملك بن مروان عندما طلب من عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام ابنته فأبت هذه أن تتزوجه وتزوجت من يحيى بن الحكم[٢].

علماً أنه تجدر الإشارة إلى أن حرية المرأة أو الفتاة في اختيار الزوج لم تكن أمراً عامًّا شاملاً، وربما خضعت إحدى الفتيات إلى مشيئة والدها على كره منها، كما حدث ذلك لابنة عبد اللّه بن جعفر، فقد زوجها والدها من الحجاج ولم تكن راضية لأنه ليس في شيء من سناء نسبها، ولا كرم سجاياها، وما حمله على ذلك إلا ضيق ذات يده وألف ألف درهم حملت إليه مهراً. فبكت يوم زفّت إليه، ولمّا سألها الحجاج عن السبب قالت: «من شرفٍ اتّضع ومن ضِعةٍ شرُفت». فلما علم عبد الملك بن مروان بذلك كتب إليه بطلاقها، فقال لها الحجاج: «أمرني أمير المؤمنين بطلاقك»، فقالت: «هو والله أبرّ بي ممن زوّجك إياي»، فلما مات أبوها لم تبك عليه[٣].

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٨١.
(٣) عيون الأخبار، لابن قتيبة، ص ٣٥.

«ب» المهر

وفي معرض حديثنا عن المهر أذكر هنا أن المهور التي كانت تعطى لبعض النساء الشريفات يكاد لا يضاهيها مهر أي فتاة غنية في عصرنا الحاضر، وقد أخبرنا الرواة أن مهر سكينة بنت الحسين من مصعب بلغ ألف ألف درهم، وكذلك رووا عن عائشة بنت طلحة[1]، وقيل: «إن عائشة هذه نالت من عمر بن عبيد الله بن معمر مثل مهرها من مصعب»[2].

ويظهر أن بعضهم كان يشط في المهر ويساوم به، فروى الأصبهاني أن عمر بن أبي ربيعة دفع مهراً من ماله لأحدهم، وكان هذا الأخير يحب ابنة عمه لكن أباها اشتط عليه في المهر، ولم يكن له طاقة على دفعه. وكان مقدار المهر يتراوح حسب قدر الفتاة، فكلما شرفت عائلتها زيد في مهرها. أما بنات العامة فكن أكثر ما يُـمْهَرن إبلاً. روى الأصبهاني أن الصمة القشيري خطب ابنة عم له فاشتط عليه عمه بالمهر، وقال له: لا أزوجكها إلا على كذا وكذا من الإبل[3].

ويروى أن الشاعر الفرزدق تزوج من حدراء بنت زريق بن بطام على مائة إبل، بينما تزوج رجل آخر بثلاثين شاة[4]. ومن طريف ما يذكر أن الحجاج استعد بدفع صداق من لم تعجبه زوجته[5]. وهكذا نرى أنه كلما وَضُعَ أصل الفتاة بخُسَ مهرها. ويظهر أن الفقيرة إذا زُفت إلى معدم يكون مهرها معزى فنرى الشاعر جرير يهجو قوماً بقوله:

ترى قزمَ المِعزى مهورَ نسائِـهمْ   وفي قزمِ المِعزى لهُن مهورُ[6]

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ٥٦.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ٥٨.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٦٤.
(٤) كتاب الحيوان، للجاحظ، ج ٣، ص ٤٤١.
(٥) المحاسن والأضداد، للجاحظ، ص ٧٥.
(٦) النقائض ـ جرير والفرزدق ـ ج ١، ص ٣٤.

«ج» تعدد الزوجات

أما تعدد الزوجات، فقد ذكرت سابقاً أن هذه العادة كانت شائعة عند العرب في الجاهلية، لكن الإسلام حدد الزوجات بأربع وفي الآية الكريمة: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ واقتضى العدل، وأوجب المساواة في المعاملة، وإذا لم يتحقق هذا الشرط اقتصر على واحدة، وذلك خوفاً من وقوع الجور واتقاء إيثار زوجة على أخرى، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[1].

ويظهر أن تعدد الزوجات راجت سوقه في العهد الأموي فأقبل عليه الناس خلفاؤهم وخاصتهم وعامتهم، وقد دفعهم إلى ذلك عوامل عدة أولها: الدين الذي أقره، ثانيها: الفتوحات الواسعة وما أدت إليه من سبي للنساء الأجنبيات، ثالثها: المال الوافر الذي كان يدر عليهم من خراج وغيره، ولقد كانت غايتهم من تعدد الزوجات مزدوجة: التمتع بالمرأة من جهة، وإكثار النسل من جهة ثانية.

كل ذلك جعل الخلفاء الأمويين يكثرون من اتخاذ الزوجات، وقلَّما وُجد خليفة أموي قنع بزوجة أو زوجتين. ويخبرنا الرواة أن معاوية بن أبي سفيان كان يقتني عدة نساء، يقول الأب Lammens:[2] «لا نعرف على الضبط أسماءهن ولا أوصافهن إذا استثنينا أربعاً ذكرهن الطبري»[3]، وقد ذكر ابن سعد في طبقاته[4] علاوة عليهن عائشة المخزومية ابنة عبد الرحمٰن بن الأسود.

وكان الأمويون يتوخون بنات البدو العريقات النسب، وها نحن نرى معاوية يخطب لنفسه ميسون ابنة بحدل من بني كلب، وميسون هذه هي أم ولده وخليفته يزيد. عاشت هذه الأميرة البدوية في كنف زوجها مدة من الزمن إلا أن حياتها في القصر كانت تدعو إلى الضجر والتذمر، وكثيراً ما كانت تحن إلى

(١) سورة النساء، الآية ٣.
(٢) Lammens, H, Etudes sur le règne de Moawia 1er, P.309.
(٣) تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٤) الطبقات، لابن سعد، ج ٥، ص ٢.

خيمتها البدوية وتتمنى لو أتيحت لها العودة إلى الصحراء حيث الحرية بعيدة عن حياة القصر الصاخبة. وهذه الأبيات تشهد لنا عن حنينها إلى مقرها الأول وتشوّقها إلى مسقط رأسها إذ تقول:

لَبيتٌ تخفُقُ الأرواحُ فيه — أحبُّ إليَّ من قصرٍ مُنيفِ
ولُبسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني — أحبُّ إليَّ من لُبسِ الشّفوفِ[1]

ومن نساء معاوية فاختة بنت قرظة وهي أم ولده البكر عبد الرحمٰن، ويظهر أنه كان لها نفوذ واسع عليه طالما لِيمَ عليه[2]، وقد تزوج بعد وفاة فاختة على الأرجح فيما نظن من أختها كتوة بنت قرظة فأنجبت له رملة[3].

وقد جرى خليفته يزيد على سنته فتزوج مراراً. روى لنا صاحب الأغاني أن الخليفة الأموي الثاني تزوج من فاطمة إحدى سليلات عبد شمس، وقد أنجبت له معاوية وخالداً[4]، وكان يزيد يكنى بهذا الأخير.

وقد تزوج يزيد امرأة أخرى هي أم مسكين حفيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويرى الأب Lammens أن هذا الزواج كان زواج مصلحة ارتآه والده معاوية ليتقرب من الوسط المديني (نسبة إلى المدينة المنورة)، واستطاعت أم مسكين هذه أن تسطو على قلب يزيد فغضبت زوجته الأولى، واضطر أن يسعى نحوها بالصلح فنظم لها أبياتاً شعرية يسترضيها بها، ويطلب منها أن تحتفي بضرّتها المدينية في قصر حوارين[5].

كذلك تزوج خالد بن يزيد ثلاث نساء هن أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر وآمنة بنت سعد بن العاص ورملة بنت الزبير بن العوام[6].

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، لعبد الله عفيفي، ج ٢، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٨١.
(٣) الطبقات، لابن سعد، ج ٨، ص ٧.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٧٨.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ٨٨.
(٦) الكامل، للمبرد، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

ويروى عن عبد الملك بن مروان أنه اتخذ عدداً وافراً من النساء بينهن عاتكة ابنة يزيد بن معاوية، وكان لها سلطة واسعة عليه، إذ حدث مرة أن غضبت عليه فأغلقت الباب ومنعته من الدخول إلى غرفتها، فشق ذلك عليه ورجا أحد رجاله أن يتوسط لديها بالصلح فأتاها الرجل إلى بابها وأخذ يبكي، ولما أرسلت جواريها يسألنه عن السبب أجاب: أن ابنيه قتل أحدهما الآخر، فأمر عبد الملك أن يفتدى الثاني به، وتوسل لديها أن تشفع به، فحنّت عاتكة عليه ونسيت غضبها على الخليفة، ثم ذهبت تتضرع إليه أن يعفو عن القاتل، فوعدها بذلك واصطلحا. عندها أمر عبد الملك للوسيط بمزرعة وألف درهم لولده وعياله ثم تمثّل بقول كُثيّر الشاعر:

وإني لأرعى قومَها من جلالِها[1]

واتبع الوليد بن عبد الملك سنّة رسول الله فتزوج أربع عقائل ذكرهن ابن عبد ربه، وهن: لبابة بنت عبد الله بن عباس، وفاطمة بنت يزيد بن معاوية، وزينب بنت سعيد بن العاص، وأم جحش بنت عبد الرحمٰن بن الحارث، فكن يجتمعن على مائدته ويفترقن فيفتخرن[2].

كذلك جمع الحجاج بين نساء أربع (والناس على دين ملوكهم) هن: هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم الجلاس بنت عبد الرحمٰن بن أسيد، وأمة الرحمٰن بنت جرير بن عبد الله البجلي[3].

يظهر لنا من ذلك كله أن الرجل في ذلك العصر كان يجمع بين نساء عدة وقلّما جمع بين اثنتين فقط. ويخبرنا الرواة أن مصعب بن الزبير تزوج سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، ودليل على جمعهما قول الأصبهاني: إنهما حجتا معاً، وكانت عائشة أحسن آلة وثقلاً، فقال حاديها:

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٣٩.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٨٣.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٨٣.

عـائـشُ يـا ذاتَ البغـالِ الستّيـنْ   لا زِلْـتِ مـا عِشْـتِ كـذا تحُجّيـنْ

فشقّ ذلك على سكينة ونزل حاديها وأنشد:

عـائـش هـذه ضـرّةٌ تشكـوكِ   لـولا أبـوهـا مـا اهتـدى أبـوكِ

فأمرت عائشة حاديها أن يكف ففعل[١].

والجدير بالذكر هنا، ذلك النفوذ الواسع الذي اتخذته هاتان المرأتان على أزواجهما وهؤلاء لا يرون بأساً. فقد رُوي عن سكينة بنت الحسين أنها عندما تزوجت من زيد بن عمرو بن عثمان أحلفته أن لا يمنعها سفراً، ولا مدخلاً، ولا مخرجاً، وقد بلغت بها سطوتها ونفوذها على زوجها أن منعته يوماً من زيارتها في الطائف، فأقامت هناك، وحوّطت من وراء دارها بحيطان، ثم حنّت عليه، وعلمت أنه لا يحل لها ذلك فأمرت حاشيتها بالرحيل إلى المدينة وأذنت لزيد فجاءها[٢].

ويظهر أن هذه المرأة كانت شديدة الغيرة على زوجها زيد هذا، قيل: إنه استأذنها مرة في الحج لأن الخليفة سليمان كان خرج حاجًا في ذلك العام، فأذنت له على أن يستصحب معه خادمها ونديمها أشعب ليكون له رقيباً، بحيث لا يتعدى الطريق إلى العرج ليتخذ له جارية. لكن زيداً استطاع أن يغري أشعب بالمال بحيث انسلّ إلى العرج، ولمّا عاد اعترف لسكينة بذنبه لكنه أعطاها الجواري لتبيعهن أو تعتقهن[٣]. ونظيرة سكينة في النفوذ والسطوة هي عائشة، فقد روي عنها أنها خاصمت زوجها مصعب بن الزبير، وحلفت أن لا تكلمه وقعدت في غرفة لها وهيأت فيها ما يصلحها، فجهد مصعب أن تكلّمه فأبت، فبعث إليها ابن قيس الرقيات فسألها كلامه[٤].

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ٦٠.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٧، ص ٩٣.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٦٧ ـ ١٧٨.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ٥٤.

وفي رواية أخرى أنها غضبت عليه وكانت من أحب الناس إليه، فشكا ذلك إلى أشعب فقال هذا: ما لي إذا رَضِيَت؟ قال: حكمك. قال: عشرة آلاف درهم. قال: هي لك. فانطلق حتى أتى عائشة، فقال: جُعلت فداكِ قد علمتِ حبي لك، وميلي قديماً وحديثاً إليك، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقي وترتهنين بها شكري. قالت: وما عندك؟ قال: قد جعل لي الأمير (يعني مصعباً) عشرة آلاف درهم إن رضيتِ عنه. قالت: ويحك لا يمكن ذلك، قال: بأبي أنت فأرضَيْ عنه حتى يعطيني، ثم عودي إلى ما عوّدكِ الله من سوء الخلق، فضحكت منه ورضيت على مصعب[١].

ويظهر أن إقبال الناس على الزواج قد تفشى بصورة مريعة، فقد ذكر لنا الرواة عن المغيرة بن شعبة، أحد دهاة العرب ووالي معاوية على العراق، أنه بنى بـ ٨٩ امرأة، وكان له أكثر من مائة وخمسين غلاماً[٢]. وكان هذا الإقبال حتى على الأرامل منهن. روى ابن عبد ربه قصة في عِقده أوردها على سبيل المثال قال: «كانت ابنة للحسين بن علي رضي الله عنهما واسمها فاطمة، عند ابن عمها الحسن بن الحسن، فلما دنت ساعة موته قال لبعض أهله: كأني بعبد اللّه بن عمرو بن عثمان إذا سمع بموتي قد جاء يتهادى في إزار له مورّد قد أسبله، فيقول: جئت أشهد ابن عمي، وليس يريد إلا النظر إلى فاطمة. فإذا جاء فلا يدخله. ثم إنه ما هو إلا أن أغمضوه حتى قدم عبد اللّه فمُنِع من الدخول. وقال قوم: افتحوا فإن مثله لا يُردّ. وفتحوا له وسار إلى الداخل وشاهد فاطمة حاسرة تبكي وتصكّ وجهها بيديها، فدعا عبد اللّه بن عمرو وصيفاً له، فقال له: انطلق إلى هذه المرأة وقل لها: يقرؤك ابن عمك السلام ويقول: كفي عن وجهك فإن لنا به حاجة. فلما بلغها الرسالة أسبلت يديها فأدخلتها في كميها حتى انصرف

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ٥٤.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٤٣.

الناس، وتزوجت من عبد الله بن عمرو بعد ذلك فولدت له محمد بن عبد الله، وكان يسمى المذهب لجماله»[١].

«د» التسري

والزواج في العصر الأموي يقودنا إلى التسري وهو الزواج من الأمة التي تملّكها العربي في الفتوحات، فصار باستطاعة الرجل أن يتزوجها متى شاء أو يبيعها أو يهبها مقابل شيء آخر، أو يعتقها فتصبح مولاته. والأمة إذا أنجبت أولاداً دُعيت (أم ولد) وحُرّرت. لكنها لا تعتبر من الزوجات الشرعيات الأربع. ويظهر أن هذا النوع من الزواج كان شائعاً في العهد الأموي وأقبل عليه الخلفاء والعامة ما عدا معاوية فإنه كان يستنكره[٢].

«قيل: أُحضر إلى عبد الملك بن مروان جارية من خراسان تسمى سعدى من سبي الصُغد فولدت له غلامين»[٣]. وذكر المسعودي «أن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم كانت له (أم ولد) يقال لها: ريّا، وقيل: طروبة»[٤]. وروي أيضاً «أن يزيد بن الوليد كان ابن (أم ولد)، وكانت أمه هذه تدعى شافرند بنت فيروز بن كسرى وهو الذي يقول في ذلك:

أنا ابنُ كِسرى وأبي مروانُ ... وقيصرُ جَدّي وجدّي خاقانُ»

كذلك كانت أم أخيه إبراهيم (أم ولد) تدعى بديرة[٥]. وجاء في الأغاني أن أم العباس بن الوليد كانت (أم ولد) رومية وقد عيّره الوليد بن يزيد بذلك[٦].

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.
(٢) الكامل، للمبرد، ص ٣٦٢.
(٣) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٦، ص ٤٦ ـ ٤٧.
(٤) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٦، ص ٣٢.
(٥) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٦، ص ١٠٣.
(٦) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٥، ص ١٥١.

ويظهر أنه كان لبعض أمهات الأولاد مكانة لدى أزواجهن، قال الأصبهاني: «قدم خالد بن عتّاب الرياحي من مغزاة فخرج جواريه يتلقّينه وفيهن أم ولد له كانت رفيعة القدر عنده وكانت حظيّةً لديه»[١].

إلا أن هذا الزواج من السبايا أدى إلى انحطاط قدر المرأة الأموية بعض الشيء والأم بصفة خاصة. دليلي على ذلك قول أحد الشعراء:

لا تَشتِمنَّ امرأً من أن تكون لهُ ... أمٌّ من الروم أو سوداء عجماءُ
فإنما أمهاتُ القومِ أوعيةٌ ... مستودعات وللأحسابِ آباءُ[٢]

وبذكر السوداء أنوّه أن الفرزدق الشاعر الأموي كانت عنده جارية سوداء زنجية تزوج منها وأنجبت له بنتاً كان يكنى بها[٣].

وكان من نتائج التسري أن انفصلت عرى العائلة، وأصبح الرجل ألعوبة في أيدي نسائه الشرعيات من جهة، وجواريه من جهة أخرى، فها هو يزيد الخليفة الأموي الذي بيده زمام الملك يخضع تارة لنفوذ حبّابة، ويقع أخرى تحت سيطرة أمته سلاّمة، وباتت زوجته الشرعية وأم أولاده سعدى تسعى لدى الأولى، وقد اشترتها له من مالها، كي توطىء لابنها عنده في ولاية العهد[٤].

وكما ذكرتُ سابقاً، كان بعض الخلفاء يتوخّون بنات البدو العريقات النسب ليحق لأولادهم الافتخار بخؤولتهم والتغني بها، وهنا لا بد لي من وقفة لذكر ما كان للخال من مقام في العائلة في ذلك العصر.

لا يخفى أنه كان، ولا يزال، للعرب افتخار بالأنساب، وكما أن العربي يفتخر بأبيه وعمه، كذلك كان يباهي ويفاخر بخاله إذا أراد الاعتزاز بأمه.

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٥، ص ١٥٣.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٩٦.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٧٨.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ١٥٥.

فالأموي الذي يفتخر بخاله كأنما اعتز بأمه والعكس صحيح. ومما يذكر عن الشاعر جميل بثينة أنه كان لا يفاخر إلا بأخواله. وقد كان للخال في نظر الخلفاء الأمويين المقام السامي، حتى إنهم كانوا يُجلسون أخوالهم في حفلاتهم العامة على يسارهم، ولا يخفى ما في ذلك من التجلّة والاحترام. وكانوا يجزلون العطاء للشعراء الذين يذكرونهم في أشعارهم، حتى أن الأخطل الشاعر الأموي، رغم كراهيته لبني كلب، اضطر أن يمدح أخوال يزيد وأمّه ميسون الكلبية إرضاء له[1].

«هـ» الأولاد وتفضيل الذكور

أنتقل الآن من الآباء والأمهات إلى الأولاد، فقد كان لأولاد الحرائر من الخلفاء المقام الأسمى في العائلة، فهم محطّ آمالهم، وخلفاؤهم في المستقبل، فقد روي عن معاوية أنه كان يقوم بنفسه بمراقبة ابنه يزيد فيمنعه من معاشرة سفلة الناس وخاصة المغنين الذين كان يكرههم[2]. وروى لنا الرواة أنه خصص له في قصره جناحاً ملاصقاً لجناحه كي تتسنى له مراقبته عن كثب. قيل: إن معاوية سمع يوماً صوت نافع المغني عند يزيد فدخل عليه ومعه عبد الله بن جعفر فلما أحس به يزيد تناوم فقال له معاوية: ما بك يا بني؟ أجابه: صدعت فرجوت أن يسكن عني بصوت هذا. فتبسّم معاوية وقال: يا نافع ما كان أغنانا من قدومك[3].

أما أولاد أمهات الأولاد ـ أي الإماء ـ إخوة الخليفة لأبيه، فكانوا يعيشون في معزل عن الناس حتى إن الشعراء لا يجسرون على ذكرهم خشيةً من الخليفة. وكان الأموي الشريف يأبى أن يزوج بناته من أولاد الخلفاء الهجناء، (والهجين هو الذي أمه أعجمية).

---

(١) ديوان الأخطل، ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٨٨.

(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٠٤.

حُكي أن عقيل بن علقمة الذي كان غيوراً فخوراً، وكان يصهر إليه خلفاء بني أمية، خطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لبعض وُلده، فقال عقيل: «جنِّبني هجناء وُلدك»[1]. وقد قيل: إنهم ـ أي الخلفاء ـ لا يستخلفون أولاد الإماء، وقالوا: «لا تصلح لهم العرب»[2]. ولعل حرمان مسلمة بن عبد الملك من الخلافة وتبوُّءَها ابن عمه عمر بن عبد العزيز كان السبب فيه كونه ابن أمة، ومن المرجح أن يكون السبب نفسه الذي نحّى الأمويون من أجله العباس بن الوليد البكر عن الخلافة[3]، على أن الأمويين لم يتمسكوا بهذا المبدأ. ففي أواخر أيامهم بايعوا أبناء الإماء، وأول من تولى الخلافة من الهجناء هو يزيد بن الوليد وأمه من نسل كسرى حسب رواية المسعودي[4]. ويقال: إن بني أمية حظروا مبايعة بني الإماء، ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد أبناء الأمَة. فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذي سوف يذهب ملكهم على يده، فلم يلبث سوى سبعة أشهرٍ حيث توفي، ووثب مكانه مروان بن محمد وأمه كردية، فذهب ملكهم على يده[5].

أما في معرض تفضيل الذكور على الإناث فيخبرنا الرواة أن كثرة من الأمويين كانوا يتبعون هذا النهج. فقد رُوي عن الحجاج أنه سأل مرة الغضبان الشيباني: مَن خيرُ النساء؟ فأجاب: «الودود الولود، التي في بطنها غلام، وفي حجرها غلام، ويتبعها غلام»، فسأله عن شر النساء فقال: «التي في بطنها جارية، (ويظهر أنهم كانوا يطلقون لقب جارية على الفتاة) وفي حجرها جارية، فقال الحجاج: على هذه لعنة الله»[6].

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٨٠.

(٢) العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٣) العقد الفريد، ج ٣، ص ٢٩٦.

(٤) مروج الذهب للمسعودي، ج ٥، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٥) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٩٨.

(٦) مروج الذهب للمسعودي، ج ٥، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

قيل: وبُشّر الأحنف بجارية، فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: لمَ لا أبكي وهي عورة، وبكاؤها عبرة، وهديتها سرقة، ونصرتها البكاء، ومهناها لغيري[١].

وليس غريباً أن تصدر مثل هذه الأحكام عن جماعة في ذلك العهد، إذا كنا اليوم، ونحن في عصر المدنية والنور، وقد قطعنا أشواطاً عظيمة عنهم في الحضارة واتساع أفق التفكير، نسمع بعض الناس يلعنون الأنثى كما لعنها الحجاج، أو نرى بعضهم يبكون كما بكى الأحنف إذا بُشّروا بالأنثى، وهذا لعمري منتهى السخافة والحمق، إذ لولا الأنثى لما جاء الذكر، ولو أن جميع النساء لا ينجبن سوى الذكور لوقعنا في مشكلة من الصعب حلها وليس لها إلا الله!!!

على أن هذا التفضيل قد شذّ عنه بعض الخلفاء، فروي عن معاوية أنه كان شديد العطف على بناته. قيل: دخل عليه مرة عبد الله بن الزبير وبُنية له تتمرغ على صدره فقال: «أمِطْها عنك يا أمير المؤمنين فإنهن يقرّبن الأعداء، ويورثن البعداء»، فقال معاوية: «مهلاً يا ابن الزبير، فما مرّض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا برّ الأحياء كَـهُنّ»، فتعجب ابن الزبير من ذلك[٢].

وقصة أخرى رواها البيهقي تدل على حنان معاوية وعطفه على البنات لا بأس من سردها: قيل: بلغ معاوية أن شيخاً من أصحابه كان يكاتب علياً بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان هذا الشيخ طعن في السن، فدعاه معاوية وقال: أيها الشيخ بلغني أنك تكاتب علياً ولولا سنّك لقتلْتُك، فلا تفعل ولا تعد. وبعد فترة وقع بين يدي معاوية كتابٌ من الشيخ إلى علي رضي الله عنه فدعاه وقال: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم. كتب فأجبته. فأمر معاوية بقتله. فانتهى الخبر إلى ابنةٍ له صغيرة فجاءت حتى قامت بين يدي معاوية وأنشأت تقول:

(١) المحاسن والمساوىء، للبيهقي، ج ٢، ص ٢٠٣.
(٢) المحاسن والمساوىء، للبيهقي، ج ٢، ص ١٩٩.

مُعـاويَ لا تقتـلْ أبـاً كـان مشفقـاً ... علينـا فنبقـى إن فَـقـدْنـاه شُـرّدا
وتُـوتِـمَ أولاداً صِغـاراً بقتلِـه ... وإن تَـعْفُ عنه كُنتَ بالعفوِ أسعدا
مُعـاويَ هَبْـهُ اليـومَ للهِ وحـدَه ... وللبـاكيـاتِ الصـارخـاتِ تلـدُّدا
مُعاويَ منكَ العلمُ والحِلمُ والتّقى ... وكنتَ قديماً يا ابن حربٍ مسدّدا

فتعجب معاوية وأصحابه لفصاحتها وفاضت عيناه بالدموع ووهبه لها[١].

ومما يُذكر عن معاوية أنه كان مثال الأب الرؤوف، كثير المداعبة لأطفاله، يلذّ له أن ينظر إلى بنيه وبني بنيه يدرجون حوله. ومن ظريف ما يروى عنه أنه دخل عليه الأحنف بن قيس، فوجده بوضعٍ يشبه وضع ملك فرنسا هنري الرابع، عندما دخل عليه مفوض إسبانيا وهو يحبو على رجليه، وابنٌ صغيرٌ له يجرّه بحبلٍ أوثقه في عنقه، فعاب عليه الأحنف هذا التصرف مع صبيةٍ صغار، فأجابه معاوية: اسكت يا لُكع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان له صبيّ فليتصاب له»[٢].

«و» الطـلاق

لا شك أن الطلاق من منغصات العيش ولكن تلك هي قاعدة الحياة الزوجية في الإسلام: ﴿إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[٣] فإذا ساءت العشرة، وتعذر التوفيق بين الزوجين، ساءت الحياة. ولا خير في حياةٍ يكدّر صفوها النزاع. ولمّا كان الزواج مبعث الود والطمأنينة لا البغض والضجر، فقد أباح الإسلام الطلاق لكنه وضع له شروطاً وقيّده. فقد نهى مثلاً عن إثباته لغير ضرورة، وأصلح في نظامه. ولا غرو أن تخضع نساء العصر الأموي عموماً للأحكام الإسلامية فكُنّ عرضةً للطلاق، الشريفة منهن والوضيعة. ولم يُعرف

(١) المحاسن والمساوىء، للبيهقي، ج ٢، ص ١٩٩.
(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص ٧٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

عن معاوية أنه طلّق سوى مرة. اختلف الرواة فيمن تكون الزوجة، ومن المرجّح أنها إحدى زوجاته من بني كلب وهي ميسون كما ذكر الأب Lammens [1]. وطلّق يزيد زوجته أم مسكين حفيدة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لسبب نجهله فتزوجت من بعده عبد الله بن زياد[2].

قيل: وخطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز أخته فقال: «أحسن بك ظناً من أودعك حرمته واختارك ولم يختر عليك، وقد زوّجناك على ما فيه كتاب الله[3] من: ﴿إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[4]».

ويروى عن الوليد بن يزيد أنه طلّق زوجته سعدى لأنه أحب أختها سلمى، والإسلام يحظّر الجمع بين الأختين، ولكن والدها أبى أن يزوجه إياها فندم على طلاقه الأولى وأرسل يطلب إليها العودة إليه وكانت قد زُفّت إلى غيره[5]. ومن هنا تبيّن ما سبق وأشرتُ إليه. وهو إقبال الرجال على الزواج حتى من الأرامل وسرعة إذعان هؤلاء للأمر.

ويظهر أنه كان من حق الزوجة الطلاق. هذا إذا اشترطته عند عقد الزواج، وإذا تنازل الرجل لها عنه. روي عن الحسن بن علي بن الحسين رضي الله عنهم أنه قال لامرأته عائشة بنت طلحة: «أمرك بيدك» فقالت: «قد كان عشرين سنة بيدك، فأحسنت حفظه، فلمَ أضيّعه إذ صار بيدي ساعة واحدة»، فأعجبه ذلك منها وأمسكها[6].

وكثيراً ما حدث أن طلّق الرجل امرأته ثم ندم على ذلك، فقد قيل: إن

(١) Lammens, H, Etudes sur le règne de Moawia 1er, P.322.
(٢) Lammens, H, Etudes sur le règne de Moawia 1er, P.322.
(٣) البيان والتبيين، للجاحظ، ج ١، ص ٢١٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ١١٣.
(٦) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٩١.

طلق أبو قطيفة زوجته فتزوجها رجل من أهل العراق، فأصابه الندم بعد أن رحل العراقي بها وصارت ملكه فقال:

فيا أسفاً لِفرقةِ أم عمروٍ ... ورحلةِ أهلِها نحوَ العراقِ
فليسَ إلى زيارتِها سبيلٌ ... ولا حتى القيامةِ من تلاقي
لعلَّ الله يُرجِعُها إلينا ... بموتٍ من حليلٍ أو طلاقِ
فأرجعَ شامتاً وتقرَّ عيني ... ويُجمعَ شملُنا بعد افتراقِ[1]

كذلك روي عن الشاعر الفرزدق أنه طلّق زوجته نوار فندم ندماً شديداً وقال:

ندمتُ ندامةَ الكُسَعيِّ لمّا ... غدتْ مني مطلَّقةً نُوارُ
وكانت جنّتي فخرجتُ منها ... كآدم حين أخرجه الضِّرارُ
فأصبحتُ الغداة ألومُ نفسي ... بأمرٍ ليس لي فيه خيارُ[2]

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٨.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٩٣.

الفصل الثاني

طبقات المجتمع

لكل أمة من الأمم طبقات يتميز بعضها عن بعضها الآخر بالمنزلة الاجتماعية، والعادات وطرق المعيشة، والمجتمع الأموي كان على ما يظهر يتألف من طبقتين كبيرتين هما:

١ ـ المسلمون

٢ ـ غير المسلمين أو أهل الذمّة

ويتفرع من هاتين الطبقتين طبقات أخرى. فالمسلمون ينقسمون إلى أربع فئات:

(أ) المسلمون العرب وعلى رأسهم الطبقة الحاكمة من خلفاء وقواد فاتحين وأرستقراطيين وفقهاء وأهل ورع وعامة

(ب) الموالي من فرس وترك وبربر وغيرهم

(ج) العبيد

(د) الأعراب وهم سكان البادية

أما غير المسلمين أو أهل الذمة فكانوا يتفرعون إلى فئات هي:

(أ) النصارى

(ب) اليهود

(ج) الصابئة أو المجوس

وكان المسلمون يعاملون النصراني واليهودي، وسواهما من غير المسلمين معاملة واحدة باعتباره ذمياً.

١ ـ المسلمون

«أ» المسلمون العرب

لا ندري حقاً نسبة هؤلاء في المجتمع الأموي، وعلى ما يظهر أنه بلغ عدد الذين أجريت عليهم الأرزاق في دمشق إبان حكم الخليفة الأموي، الوليد بن عبد الملك ٥٤٠٠٠. وفي حمص بلغ عددهم زمن الخليفة مروان بن الحكم ٢٠ ألفاً كما يزعم الأب لامنس[١]، وكان أكثرهم يسكنون المدن وهم طبقات، أعلاها:

١ ـ الخلفاء

وهم الطبقةُ الحاكمة في البلاد، فالخليفة هو رئيس الدولة ومدير شؤونها السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية. مقرّه على الأغلب دمشق حيث يعيش في قصره بين نسائه وجواريه وأولاده وأحفاده وخدمه. ولم يكرّس الخليفة وقته لأعماله فحسب، وإنما تمتّع بقسطٍ وافرٍ من اللهو والقصف، فشهد مجالس الأدب والغناء والشراب، وكان لبعض الخلفاء ندماء يقومون على مسامرتهم ومنادمتهم، وأحياناً كثيرة كان النديم يتمادى في لهوه مما جعل الجاحظ يَعيبُ على الخلفاء ويستنكر تسامحهم في هذه الأمور إذ ذكر في كتابه «التاج في أخلاق الملوك»: «غلب على يزيد بن عبد الملك اللهو، واستخلف بآيين (هكذا وردت) المملكة، وأذن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه والرد عليهم، وهو أول من شُتم في وجهه من الخلفاء على جهة الهزل والسخف»[٢].

وقد كان لبعض الخلفاء عاداتٌ في ملابسهم ومآكلهم ولا يجسرُ العامة على تقليدهم بها، «من ذلك أن عبد الملك بن مروان كان إذا لبس الخفّ الأصفر لم يلبس أحد من الخلق خفاً أصفر حتى ينزعه»[٣].

---

(١) Lammens, H, La Syrie Précis Historique, P.109-110.

(٢) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ٣٠.

(٣) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ٤٧.

٢ ـ الخاصة

هذه الطبقة تتألف من القادة والأمراء والولاة وأعضاء الأسر الشريفة وكان أصحابها على جانبٍ عظيمٍ من الترف والغنى أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي الذي قيل إنه مهر زوجته ابنةَ عبد اللّه بن جعفر ألف ألف درهم(١)، وأمية بن عبد اللّه بن خالد والي خراسان الذي بلغ من بذخه أن أرسل إلى عبد الملك بن مروان يقول له: إن خراج خراسان لا يفي بمطبخي(٢)، ومصعب بن الزبير وزوجتيه سُكينة وعائشة اللتين بلغ مهر كلٍّ منهما ملايين الدنانير، وغير هؤلاء كثيرون أمثال ابن أبي عتيق، وعبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدِّيق، والحارث بن خالد المخزومي، سوف آتي على ذكرهم في مكان آخر من هذا الكتاب.

هذا وكما كان للخلفاء عادات في الملبس لا يجرؤ أحد على تقليدهم، كذلك كان لأفراد الطبقة من الخاصة أيضاً مناهج لا يسمح لعامة الشعب بتقليدها. فقد روى الجاحظ في كتابه «التاج»: «إن سعيد بن العاص كان إذا اعتمَّ (لبس العمامة) لم يجرؤ أحدٌ أن يعتمَّ ما دامت العمّةُ على رأسه، كذلك كان الحجاج إذا وضع على رأسه قلنسوة طويلة لم يجرؤ أحدٌ من الخلق أن يدخل على رأسه مثلها»(٣).

٣ ـ الفقهاء وأهل الورع

ضم العهد الأموي عدداً كبيراً من الفقهاء والمحدثين أمثال الشعبي، وسعيد بن المسيب، وعبيد اللّه بن عتبة، وعبد الرحمٰن بن أبي عمار الذي كان يلقب بالقس.

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ١، ص ١٤٦.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ٥٦.
(٣) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ٤٨.

كما أن هذا العصر شهد قوماً من الزهاد الورعين أمثال النعمان بن بشير الذي قال عنه الطبري: «كان حليماً ناسكاً»(١). وعبد اللّه بن الزبير حمامة الكعبة ذكره السيوطي فقال: «كان صوّاماً قوّاماً، طويل الصلاة، وَصولاً للرحم، قسم الدهر ثلاث ليالٍ: ليلةً يصلي قائماً حتى الصباح، وليلةً راكعاً، وليلةً ساجداً حتى الصباح»(٢).

هذا وقد رويت عن عبد اللّه بن عمر أخبار كثيرة عن زهده وورعه ذكرها ابن سعد: «وبلغ عن زهده أن ملَّه أهله وسئموه»(٣).

٤ ـ العامة

وهنالك طبقة تقع بين هاتين الطبقتين عاثت فساداً في المجتمع وشطّ أصحابها في الفسق والمجون وكان لهم أثرهم في المجتمع الأموي، أذكر على سبيل المثال العرجي والأحوص والوليد بن عقبة، وقد وردت أخبار فجورهم ومجونهم في أكثر المراجع الأدبية.

«ب» الموالي وأصلهم

لمّا تتالت الفتوحات الإسلامية تدفّق سيلٌ من السبي والرقيق على العرب فلم يجد هؤلاء اسماً يطلقونه عليهم سوى الموالي، ثم أخذت هذه التسمية مفهوماً مجدداً فأصبحت تطلق على كل من أسلم من غير العرب سواء أكان رقيقاً أم حرّاً(٤).

والولاء في الإسلام هو النصرة والمساعدة، وهما صلة ومحبة، فلم يعتبره هبة أو بيعاً أو إرثاً، بل دعا أن تكون العلاقة كالنسب لا بد من الاحتفاظ بها

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، ج٢، ص ٢٣٨.
(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص ٨٢.
(٣) الطبقات، لابن سعد، ج ٤، ص ١١١ ـ ١١٢.
(٤) فجر الإسلام، لأحمد أمين، ص ٨٨.

وتنميتها وتعميقها حتى يشعر المولى بكرامته الإنسانية. وهذه المعاني الجديدة هي التي حببت الإسلام في نفوس الكثيرين من الموالي وشجّعتهم على اعتناق الإسلام[١]. وقد تأثر هؤلاء بالعصبية العربية وأصبح موالي كل قبيلة ينتسبون إليها ويحاربون معها ويذودون عنها ويستخدمون في شؤونها، فنرى مثلاً موالي تيم وموالي الأزد وموالي مخزوم، إلى غير ذلك.

وقد شارك الموالي في الحياة السياسية في نجد والحجاز، ففي سنة ٦٨٣ م اشتركوا في معركة الحرة بقيادة يزيد بن هرمز[٢] وخلال حركة عبد الله بن الزبير اشترك الموالي في المعركة التي قامت بينه وبين الأمويين[٣] وكان للموالي نصيب في الحياة الاقتصادية كالزراعة، وكان المسؤول عن مزارع معاوية في المدينة من الموالي ابن ميناء[٤].

كما زاول الموالي الصناعة كصناعة المنسوجات[٥] والتجارة فكان سائب خاثر مولى بني ليث تاجراً موسراً يبيع الطعام في المدينة[٦].

ومع أن الإسلام دعا إلى المساواة بين المسلمين إذ قال ﷺ: «المؤمنون إخوة تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم»[٧]، وقال في حجة الوداع: «أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[٨]، فقد تعصب الأمويون للعرب واحتقروا من سواهم، وخاصة

---

(١) السيرة، لابن هشام، ج ٤، ص ١٧٧.
(٢) الطبقات، لابن سعد، ج ٥، ص ٢٠٥.
(٣) أخبار مكة، للأزرقي، ص ١٣٩.
(٤) تاريخ ابن واضح، لليعقوبي، ج٢، ص ٢٥٠.
(٥) الطبقات، لابن السعد، ج ٥، ص ٣٢٤.
(٦) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٧) السيرة، لابن هشام، ص ٩٦٨ ـ ٩٦٩.
(٨) السيرة، لابن هشام، ص ٩٦٨ ـ ٩٦٩.

الموالي، فكانوا يعاملونهم معاملة العبيد، ويعتبرون أنفسهم أعلى منزلة منهم وأرفع مقاماً. وقد ذكر الدكتور عمر فروخ «أن سياسة بني أمية كانت مبنيةً على العصبية العربية، وكان الموالي من الفرس والترك يلقون من تلك السياسة عنتاً كبيراً، وكان استبدادهم شديداً وحكمهم قاسياً، فلم يستطع أولئك الموالي تحركاً قبل مجيء عمر بن عبد العزيز الذي كان متساهلاً معهم جدّاً وعادلاً، الشيء الذي لم يرض عنه بنو أمية»[١].

وقيل: «كان العربي إذا مرّت به جنازة مسلم، قال: من هذا؟ فإذا قالوا: قرشي، قال: وا قوماه! وإذا قالوا: عربي، قال: وا بلدتاه! وإذا قالوا: مولى، قال: «مالُ الله يأخذ من يشاء ويدع من يشاء». وكانوا يحرمون الموالي من الكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ويأنفون من المشي معهم في صف واحد، وإذا صلى أحدهم وراء المولى اعتبر ذلك تواضعاً منه»[٢].

وجاء في العقد الفريد أن الحجاج لمّا قبض على الموالي الذين عاضدوا الأشعث في ثورته أراد أن يفرّقهم حتى لا يجتمعوا، نقش على يد كل واحد منهم اسم البلدة التي وجّهه إليها، وقد عهد بذلك النقش إلى رجل من بني عجل، فقال الشاعر:

وأنـتَ مَـن نَقَـشَ العِجْلـيُّ راحتَـهُ   وفرّ شيخُكَ حتى عادَ بالحَكَمِ[٣]

إلا أن الموالي لمّا شعروا بازدراء الأمويين لهم حاولوا رفع منزلتهم عن طريق العلم فأكبّوا عليه يشربون من مناهله حتى برع منهم عدد وافر في علوم شتى فكان منهم المحدثون والفقهاء والشعراء حتى والمغنّون.

روى ابن عبد ربه حواراً جرى بين ابن أبي ليلى وعيسى بن موسى لا بأس من سرده هنا دليلاً على تفوّق هؤلاء الموالي بالفقه والحديث:

---

(١) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ٩٠.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ٩٢.

«قال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى وكان ديّاناً شديد العصبيةِ للعرب: من كان فقيهُ البصرة؟ قلتُ: الحسن بن أبي الحسن. قال: ثم من؟ قلت: محمد بن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: موليان. قال: فمن فقيه مكّة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار. قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالٍ. قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم ومحمد المنكدر ونافع بن أبي نجيح. قال: من هؤلاء؟ قلت: موالٍ. فتغير لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي وابن أبي زياد. قال: فما كانا؟ قلت: موالٍ. فاربدّ وجهه، ثم قال: فمن فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه. قال: من هؤلاء؟ قلت: من الموالي، فانتفخت أوداجه وانتصب قائلاً: من كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني، قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى، فازداد وجهه تربُّداً واسودّ اسوداداً حتى خفته، قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول. قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى، فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فوالله لولا خوفي لقلت: الحكم بن عتبة وعمار بن سليمان ولكني رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم النخعي والشعبي، قال: من كانا؟ قلت: عربيين، قال: الله أكبر، وسكن جأشه»[1].

وشبيه بذلك ما جاء في معجم البلدان: قال عبد الرحمٰن بن أبي زيد بن أسلم: «لمّا مات (العبادلة) يعني عبد اللّه بن عباس، وعبد اللّه بن الزبير، وعبد اللّه بن عمرو بن العاص، صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي. فصار فقيه أهل مكة عطاء بن أبي رباح، وفقيه أهل اليمن طاووس، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير، وفقيه البصرة الحسن البصري، وفقيه أهل الكوفة النخعي، وفقيه أهل الشام مكحول، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراساني، إلا المدينة فإن الله تعالى خصّها بقرشي كان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب»[2].

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ٩١ ـ ٩٢.
(٢) معجم البلدان، لياقوت الحموي، مادة خراسان.

إلا أنه رغم احتقار الأمويين للموالي فكثيراً ما أسندوا إليهم مصالح الدولة التي تحتاج إلى أمانة وثقة كالحراسة، وأمانة السر، وخصصوا لهم مراتب سنيّة[1]، لكنهم حرموهم من المناصب الرفيعة التي تقتضي الشرف وعلوّ المنزلة كالقضاء. وكان الموالي يعتبرون ذلك فوق مرتبتهم. قيل: إن عمر بن عبد العزيز أراد أن يولّي مكحولاً الفقيه الشامي الشهير القضاء، فأبى مكحول وقال: قال ﷺ: «لا يقضي بين الناس إلا ذو الشرف في قومه، وأنا يا أمير المؤمنين مولى»[2].

هذا ولمّا تفوّق الموالي في نواحٍ كثيرة من العلوم واندمجوا في الحياة الاقتصادية ازداد إقبال الناس على الزواج من بنات الموالي غير العربيات ورغبوا فيهن أكثر من ذي قبل. جاء في «العقد الفريد» أن أهل المدينة كانوا يكرهون اتخاذ الزوجات من (أمهات الأولاد) حتى نشأ فيهم علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد اللّه، (وكانوا على ما يظهر بني خالات جميعاً وأمهاتهم بنات يزدجرد) ففاقوا أهل المدينة فقهاً وورعاً ورغب الناس في السراري[3]. فكان أن امتزجت الدماء العربية بالدماء الأعجمية عن طريق هذا التزاوج، وقد ترتّب على ذلك نشوءُ جيلٍ من التابعين وخليطٍ من العرب والموالي. وكانت صلتهم وثيقة بالحضارة المقتبسة لأن الموالي كما ذكرت سابقاً كانوا في الأصل رقيقاً يقومون على خدمة أسيادهم العرب حيث نقلوا إليهم كثيراً من ألوان الحضارة التي كان يجهلها العرب[4] كالأطعمة، والأشربة، والفرش وكثيراً من تقاليدهم في الأفراح[5].

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ١٦٣.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ١، ص ٨.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٩٦.
(٤) المقدمة، لابن خلدون، ص ١٥٤.
(٥) المقدمة، لابن خلدون، ص ١٥٤.

وقد نبغ من الموالي شعراء كثر منهم إسماعيل بن يسار، وكان أخواه محمد وإبراهيم شاعرين، وهو من سبي فارس، وكان على ما يظهر شعوبيّاً شديد التعصب للعجم. فقد قيل: إن هشام بن عبد الملك طلب منه أن ينشده شعراً فأنشده قصيدته التي يفاخر بها بالعجم:

يـا ربـعَ راحـةَ بـالعليـاءِ مـن ريـمِ   هـلْ تُـرْجعيـنَ إذا حُيِّيـتِ تَسليمي

قيل: فغضب هشام وقال: أعليّ تفخر وإياي تنشد قصيدةً تمدحُ بها نفسك وأعلاج قومك! وأمر خدمه فغطّسوه في الماء حتى كادت نفسه تخرج، ثم أمر بإخراجه ونفاه إلى الحجاز[1].

أما المغنّون الموالي فحدِّث عنهم ولا حرج، وقد كان أكثرهم من الفرس، فمعبد مغنّي المدينة المشهور كان مولى معاوية بن أبي سفيان[2]، وكذلك ابن سريح مولى بني نوفل ومغني الخلفاء ونديمهم[3]، وحكم الوادي مولى الوليد بن عبد الملك، وغيرهم[4]. وهكذا قيل عن أكثر القيان (المغنّيات) الشهيرات، فجميلة المغنية المشهورة كانت مولاةً لبني سليم، وعزة الميلاء مولاةً للأنصار[5].

وهناك فئة من الموالي ارتضت المهن كالتجارة والصناعة والصياغة وبرعت فيها[6].

«ج» العبيد

كان نظام الرق شائعاً قبل الإسلام عند جميع الشعوب، غير أن الأمم كانت

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٩، ص ١٢٥.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٩.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٩٧.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٥، ص ١٤.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٢٤.
(٦) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج ٤ ص ٦٢.

تتفاوت في حسن معاملتها للرقيق، فاليونان والرومان أباحوا استرقاق العبيد إلا أنهم كانوا يسيئون معاملتهم ويسومونهم طرقاً شتى من العذاب.

ولمّا جاء الإسلام، وكثرت الفتوحات، زاد الاسترقاق في الأمم المغلوبة، وتدفق سيل من الأرقاء والإماء على العرب الفاتحين. ومما يروى عن الزبير بن العوام أنه كان يملك ألف عبد وألف أمة[1]. وقد أوجب الإسلام حسن معاملة الرقيق وحبّب إلى المالك العتق وجعله كفارةً عن كثير من الآثام والجرائم. قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[2]، صدق الله العظيم. وأوصى الرسول ﷺ بحسن معاملة الرقيق فقال: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه، ومن مثّل بعبده عتقه عليه».

فكان من جرّاء كثرة الرقيق أن راجت سوقه وأصبحت النخاسة مهنةً تغدق على أصحابها مرابح طائلة.

أما أنواع الرقيق (الأرقّاء) فعديدة منها الصقالبة، وقد أخذت التسمية من الشعوب الأوروبية، فعرفتهم باسم Slaves. ونظراً لأن قسطاً كبيراً منهم جرى استرقاقه على يد البيزنطيين وغيرهم، فقد أصبح الاسم يعني العبد الرقيق وهو بالإنكليزية Slaves وبالفرنسية Esclaves وذكر البلاذري «أن عدداً من الصقالبة قد أخلصوا في خدمة الدولة الأموية فنالوا مناصب رفيعة»[3]. ومنها الخزر الأتراك من بادية تركستان وهم بيض البشرة على وجه العموم، ومنها السود وكان يؤتى بهم من وسط أفريقيا وجنوب بلاد العرب[4].

---

(١) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٤، ص ٢٥٤.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٩.
(٣) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ١٤٩.
(٤) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج ٥، ص ٢٥.

وقد ارتفعت أعداد الأرقاء ارتفاعاً كبيراً، قيل: إن موسى بن نصير جاء من أفريقيا بما يزيد عن ٣٠٠,٠٠٠ أسير أهدى خمسهم إلى الوليد بن عبد الملك[١].

كذلك أحصي عدد السبايا من بنات أشراف الغوط اللاتي أتى بهنَّ قتيبة بن مسلم من الصغد، فبلغ مائة ألف[٢].

وبلغ عدد الذين أعتقهم سليمان بن عبد الملك سبعين ألفاً بين مملوك ومملوكة[٣].

وكان هؤلاء العبيد، وخاصة السود منهم، يستخدمون في قضاء شتى الأعمال سواء في المنزل أو في خارجه، كالزراعة والفلاحة أو بناء الدور واستصلاح الأراضي في المزارع التي كان يملكها أسيادهم. فقد استخدم معاوية أربعة آلافٍ من الرقيق وأسرهم في بلدة الخضارم في إقليم اليمامة بنجد لاستصلاحها واستثمارها[٤]. وكان معبد المغني مملوكاً لبني مخزوم يرعى لهم الغنم بظهر الحرّة في المدينة، وكان الشاعر نصيب عبداً حبشيّاً يرعى إبل مواليه في مستهلّ حياته[٥]. ويظهر أن قيمة العبد كانت تختلف باختلاف صناعته، فثمن العبد الذي يجهل الصناعة مئة دينار، وإذا كان راعياً للإبل يحسن القيام بهذا العمل قدِّرت قيمته بمائتي دينار، وإذا كان عارفاً بصناعة النبال وغيرها من أدوات الحروب بلغت قيمته أربعمائة دينار، وإذا كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ستمائة دينار[٦]. كذلك استعان الأمويون بهم للعمل في بناء السفن فكانوا يرسلونهم للعمل في الأساطيل التي تتخذ قواعدها في الشام[٧].

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج ٤، ص ٤٥٣.
(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج ٤، ص ٤٥٤.
(٣) خطط الشام، لمحمد كرد علي، ج ١، ص ١٥٤.
(٤) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٥٢.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج١، ص ٣٣١ ـ ٣٣٣.
(٦) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٣٣.
(٧) العرب والملاحة في المحيط الهندي، لجورج فضلو الحوراني، ص ١٨١ ـ ١٨٤.

وهناك العبيد الخصيان وكانوا يستخدمون عند نساء الخلفاء أو الطبقة الأرستقراطية. ذكر السيوطي عن الشعبي أن معاوية اتخذ الخصيان لحرمه الخاص[١].

وكذلك اقتنى الأمويون الغلمان فكان الأشراف يحرصون على الاعتناء بهم ويلبسونهم الأثواب الثمينة ويباهون بهم. حكي عن الدلال المغني أنه غنى لأحد أشراف الشام فأطربه وأراد مكافأته، وكان لدى هذا الشريف غلامان حسنا الهيئة فأمر له بأحدهما[٢].

«د» الأعراب

وأخيراً نذكر آخر طبقةٍ من المسلمين وكان يجدر بي أن أضعهم مع العرب المسلمين، إلا أني ذكرتهم على انفراد، لأنهم خلافاً عن مسلمي الحضر الذين سكنوا المدن، فهؤلاء الأعراب عاشوا في البادية وكانوا بعيدين نوعاً ما عن لب الإسلام. فأكثرهم جهلة لهم نوادر كثيرة مبعثرة في شتى الكتب ذكر منها ابن عبد ربه الشيء الكثير وأفرد لهم جوهرةً في عقده.

روى المسعودي حكايةً عن أحد هؤلاء الأعراب، وهو ابن عم للحجاج بن يوسف الثقفي لا بأس من إيرادها هنا للدلالة على جهالة هؤلاء الأعراب وغبائهم قال:

«قَدِمَ على الحجاج ابنُ عم له أعرابي من البادية فنظر إليه يولّي الناس، فقال له: أيها الأمير لِمَ لا تولّيني بعض هذا الحضر؟ قال الحجاج: هؤلاء يكتبون ويحسبون، وأنت لا تكتب ولا تحسب، فغضب الأعرابي وقال: لا، بلى والله إني لأحسَبُ منهم حسباً وأكْتَبُ منهم يداً. قال له الحجاج: فإن كنت كما تزعم

---

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص ٧٧.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ٧٦.

فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس، فما زال يردد قوله: ثلاثة دراهم بين أربعة رجال لكل واحدٍ منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء! كم هي أيها الأمير؟ قال الحجاج: هم أربعة. قال: نعم، أيها الأمير قد وقعت على الحساب، لكل واحد منهم درهم وأنا أعطي الرابع درهماً من عندي. وضرب يده إلى جيبه فاستخرج منها درهماً وقال: أيكم الرابع؟ والله ما رأيت كاليوم زوراً مثل حساب هؤلاء الحضريين، فضحك الحجاج ومن معه»[1].

لكن علينا أن ننصف هؤلاء الأعراب حقهم فنقول: إنه اشتهر منهم جماعةٌ عرفوا برجاحة العقل، وسداد الرأي، زِدْ على ذلك فصاحتهم الفطرية التي تفوق أحياناً فصاحة أهل الحضر، علاوةً على ذلك كله، فهم مادة الفتوح وعامل من عوامل الغلبة على الأجانب.

٢ ـ أهل الذمّة

ونعني بهم أولئك الذين لم يعتنقوا الإسلام من نصارى ويهود ومجوس وغيرهم بل ظلوا على دياناتهم، وكانت تعاليم الإسلام تقضي بأنه إذا أراد المسلمون غزو بلدٍ وجب عليهم دعوة أهله إلى اعتناق الإسلام، فإن أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء، ولقد جاء في الحديث الشريف: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا عني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله». فإن أبوا كان عليهم تسليم بلادهم للمسلمين يحكمونها ويخيَّرون في البقاء على أن يدفعوا الجزية، فإن قبلوا كانوا هم والمسلمين سواء، وهم في ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم، ومن أجل هذا يسمّون أهل الذمة.

ظلّت بعض القبائل النصرانية محافظة على دينها في العصر الأموي مع دفع

(١) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.

الجزية كقبيلتي تَـغْلب وكَـلْب. وكان الأمويون في بادىء أمرهم يتساهلون مع النصارى حتى إن معاوية بن أبي سفيان تزوج من ميسون الكلبية التي ظلت على نصرانيتها. كما أنهم ولّوهم بعض المناصب في الدولة. روي عن معاوية أنه أوكل بيت المال إلى سرجون بن منصور الرومي الذي ظل محافظاً على منصبه حتى زمن يزيد، وكان الخليفة الثاني يستشيره ويتبع نصائحه[1].

وقد كان مؤدب يزيد فيما يعتقد الأب Lammens مسيحياً[2] ويظهر أن يزيداً هذا أعجبه مربّيه فكان أن أوكل تأديب ابنه خالد إلى أحد النصارى وهو ماريانوس[3].

روي عن عبد الملك بن مروان أنه سمع مرة بشهرة أحد مسيحيي الرها ويدعى «أثاناس» فأرسل يطلبه وعيَّنه مؤدباً ومعلماً لأخيه عبد العزيز وأوفده معه إلى مصر. ومما يجدر ذكره أن هذا المعلم المسيحي أصبح فيما بعد غنيًّا موسراً فاشترى الضياع واقتنى العبيد، وكان يتلاعب بالقطع الذهبية والفضية كما لو كانت حصى وأحجاراً[4]. إلا أن هذا الغنى المفاجىء كان موضع شك عند بعض حسّاد أثاناس فوشوا به إلى عبد الملك، غير أن الخليفة لم يعِرْهم أذناً صاغية[5].

وإذا ذكرنا عبد الملك وعلاقته بالنصارى انتقل فكرنا إلى شاعرٍ نصراني نبغ في ظله وكانت له دالّة عليه طالما لِيمَ عليها، ألا وهو الأخطل الشاعر التغلبي.

كان الأخطل هذا من أقرب المقربين لدى البلاط الأموي. قال رجل لأبي عمرو: يا عجباً للأخطل! نصراني يهجو المسلمين! فقال أبو عمرو: «يا لُكع،

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، مجلد ٢، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٢) معاوية، للأب لامنس، ص ٣٥٨.
(٣) معاوية، للأب لامنس، ص ٣٥٩.
(٤) Le Chantre، الأب لامنس، ص ١٢٢.
(٥) Le Chantre، الأب لامنس، ص ١٣٣.

لقد كان الأخطل وعليه جبة خزٍ وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن، وكان يدخل مسجد الكوفة فيقومون له»[1].

ولقد كان هذا الشاعر النصراني بالرغم من حظوته عند الخلفاء شديد التمسك بنصرانيته كثير الاحترام للقسيسين. حدّث إسحٰق بن عبد الله من بني عبد المطلب قال: «قدمت الشام وأنا شاب مع أبي، وكنت أطوف في كنائسها ومساجدها، فدخلت كنيسة دمشق وإذا الأخطل فيها محبوس، فجعلت أنظر إليه فسأل عني، فأُخبر بنسبي فقال: يا فتى إنك لرجل شريف وإني أسألك حاجة، فقلت: حاجتك مقضيّة. قال: إن القس حبسني هنا فكلّمه ليخلي سبيلي. فأتيت القس فانتسبت له فرحّب وعظّم، فقلت: إن لي إليك حاجة. قال: ما حاجتك؟ قلت: الأخطل تُخلي عنه. قال: أعيذك بالله من هذا؟ مثلك لا يتكلم فيه، فهو فاسق يشتم أعراض الناس ويهجوهم. فلم أزل أطلب إليه حتى مضى معي متكئاً على عصاه، فوقف ورفع عصاه وقال: يا عدوّ الله أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذفُ أعراض المحصنات؟ وهو يقول: لست بعائد، لست بعائد، لا أفعل، ويستخذي له. فقلت: يا أبا مالك، الناس يهابونك والخليفة يكرمك وقدرك في الناس وأنت تخضع لهذا هذا الخضوع وتستخذي له! فجعل يقول لي: إنه الدين إنه الدين»[2].

فهذه القصة وسواها مما روي عن الأخطل وتمسّكه بدينه تدلّنا على مقدار ما كان يتمتع به النصارى من حرية المعتقد في كنف عبد الملك بن مروان بالشام.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله في مصر: إياكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلا أهل القرآن، فكتبوا إليه: يا أمير المؤمنين إنا استعملنا أهل

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

القرآن فوجدناهم خونة، فكتب إليهم: إياكم أن يبلغني عنكم أنكم استعملتم على شيء من أعمالنا إلا أهل القرآن، فإنه إن لم يكن عند أهل القرآن خير فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير[1].

وهذا التصرف من عمر شمل أيضاً اليهود والصابئة والمجوس، على أن هشام بن عبد الملك عاد فتساهل مع النصارى. قيل: كان خالد بن عبد الله القسري مكيناً عنده[2]، ومما يروى عن خالد هذا عامله في العراق أنه بنى كنيسة لأمه النصرانية، في الكوفة فإذا أراد المؤذن في المسجد أن يؤذن ضرب لها بالناقوس، وإذا قام الخطيب على المنبر رفع صوت النصارى، وكان يولّي النصارى والمجوس على المسلمين ويأمرهم بامتهانهم وضربهم[3].

ويظهر لنا مما تقدم أن الأمويـين اعتمدوا على النصارى أكثر من غيرهم من أهل الذمة، وقلّما سمعنا أنهم ولّوا أو قرّبوا أحداً من اليهود أو الصابئة، ولم تصلنا أخبار عن علاقتهم أو معاملتهم لهاتين الفئتين.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص ١٠٠.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٩، ص ٦٢.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٩، ص ٥٩.

الفصل الثالث

الحياة العامة

توطئة

لا يخفى ما كانت عليه الجزيرة العربية قبل الإسلام وخاصّة الحجاز من شظف في العيش. زعم ابن خلدون في مقدمته أنه لم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من مضر لمّا كانوا في الحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع[1]، هذا إذا استثنينا بعض القبائل التي كان لها شيء من الغنى كقريش مثلاً، فقد كان لها تجارة تحمل بضائعها إلى الشام واليمن وتعود مزوّدة بالبضائع الشامية واليمنية فتبيعها في أرض الحجاز وتنقل إلى ذينك القطرين ما تنتجه - إذا صح التعبير - بلادها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هاتين الرحلتين، وجاء في سورة قريش: ﴿لإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[2] ويعني بالأولى الرحلة إلى اليمن والثانية إلى الشام.

١ ـ عوامل التطور

ما إن جاء محمد ﷺ بالإسلام حتى اعتنق أهل الحجاز الدين الجديد وزحفوا بجيوشهم الجرّارة فاتحين البلاد شرقاً وغرباً، فاحتلّوا فارس وبلاد الروم

---

(١) المقدمة، لابن خلدون، ص ١٧٧.
(٢) سورة قريش، الآيتان ١ و٢.

وشمال أفريقيا، وزعزعوا عروش القياصرة والأكاسرة، وغنموا الغنائم، وجمعوا الأموال الطائلة. ولا حاجة لي الآن إلى سرد مقدار الفيء الذي حصل عليه المسلمون زمن النبي والخلفاء الراشدين من البلاد المفتوحة، وإنما الذي أريد أن أتوصل إليه هو ضخامة ذلك الفيء الذي كان يدرّ على الأمويين، والتنويه بما كان لهذه الأموال الطائلة التي حصلوا عليها من أثر في تطور حياتهم، وهنا لا بد من ذكر بعض الأمثلة للدلالة على مقدار الثروة التي كانوا يقتنونها.

«أ» تدفق الثروة

ذلك هو العامل الأول الذي أدى إلى تطور الحياة الاجتماعية في ذلك العهد، والعهد الذي سبقه نوعاً ما، فقد روى الطبري عن فتح قتيبة لبيكند وعن مبلغ الثروة التي أصابها العرب إذ قال: «أصابوا فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى، وأمر قتيبة عمّاله أن يُـذيبوا هذه الأواني، وعندما أذابوها خرج منها خمسون ومائة ألف مثقال. ورجع قتيبة من فتوحاته، وقوي المسلمون فاشتروا السلاح والخيل وجُلِبت لهم الدوابّ، وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة وغالوا باقتناء السلاح والعتاد». وروي أيضاً «أن قتيبة صالح أهل سمرقند على مليونين ومائتي ألف في كل عام»[1].

وذكر البلاذري أن الحجاج بن يوسف وجّه محمد بن القاسم الثقفي لفتح السند والهند، فأنفق عليه الأموال الطائلة وأنها بلغت ستين مليون درهم[2]. وسار ابن القاسم ووُفِّق في غزوته، ففتح ما أحجم العرب عن فتحه أيام عثمان. وعاد إلى الحجاج بفيء كثير. رووا أنه بلغ مائة وعشرين مليون درهم.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، مجلد ٢، ص ١١٨٨ ـ ١١٨٩.
(٢) فتوح البلدان، للبلاذري، ج ٨، ص ٤٤٠.

فقال الحجاج: «شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين مليون درهم»[1]. وذكر اليعقوبي أنه كان في بيت مال الوليد يوم قُتل سبعة وأربعون ألف ألف دينار[2]. فلا عجب إذاً بعد كل ما ذكرت أن تتطور الحياة الاجتماعية. أضف إلى ذلك احتكاك العرب بالأعاجم الذي كان العامل المهم في ذلك التطور.

«ب» الاحتكاك بالأعاجم

اتصل العرب بعد فتوحاتهم الواسعة وخاصة في زمن الأمويين بالأمم الأجنبية العريقة في الحضارة أمثال الروم والفرس وغيرهم. فكان من الطبيعي أن ينقلوا عنهم أنماط حضاراتهم وأن يقلّدوهم في حياتهم وطرق معيشتهم. وليس غريباً بعد هذا كله أن نرى الحجازيين، وهم أبعد العرب عن المدينة يقبلون على هذه الحياة الجديدة فيغرفون منها وينغمسون بها.

هذا وقد تعلق العرب بأسباب الحضارة من طرق شتى أهمها وأعظمها أثراً هو ذلك السيل من الرقيق الذي تدفق عليهم، ومنهن الأميرات وبنات الأشراف اللاتي سلكن سبل الترف قبل سبيهن وتنعمن في بلادهن بشتى أنواعه. نرى ابن خلدون يقول: «وأهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة الدول السابقة قبلهم، فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون، ومثل هذا وقع للعرب لمّا كان الفتح، وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا بذلك في شيء من الحضارة. فقد حُكي أن قُدِّم لهم المرقّق، فكانوا يحسبونه رُقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً»[3].

---

(١) فتوح البلدان، للبلاذري، ج ٨، ص ٤٤٠.

(٢) تاريخ ابن واضح، لليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٣) المقدمة، لابن خلدون، ص ١٥٠.

٢ ـ مظاهر هذه الحياة

«أ» العمران

١ ـ بناء المساجد

«أ» قبة الصخرة: أول من فكَّر ببناء الجوامع من الأمويين عبد الملك بن مروان، إذ أراد أن يمنع أهل الشام من الحج، ذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا إلى بيت الله الحرام بالبيعة. فأمر أن تقوم الصخرة في القدس مقام الكعبة وذلك سنة ٧٢ هجرية سنة ٦٩١ ميلادية وبنى عليها القبة التي تعتبر من أقدم الأبنية التي خلّفتها الحضارة الإسلامية وأجملها، وقد أنشأها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عام ٧٢ هـ ـ ٦٩١ م. وذكرت بعض المصادر التاريخية أن الخليفة صرف على بنائها خراج مصر لسبع سنوات[1]، إن الشكل الأساسي الذي بنيت على أساسه هذه القبة هو المثمَّن، وهو من النماذج الفريدة في تاريخ العمارة الإسلامية. ويتألف في تخطيطه من مثمَّنٍ خارجي، وآخر داخلي، ومن ثمَّ دائرة تتوسط البناء. والمثمَّن الخارجي عبارة عن جدران مغلقة عليها أربعة أبواب تقع في الجهات الموازية للاتجاهات الأربعة، وعلى كل ضلع من أضلاع المثمَّن سبعة شبابيك. وعلق عبد الملك عليها ستائر الديباج وأقام لها سدنة[2]، وهي لا تزال قائمة إلى اليوم.

---

(١) الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، لمجير الدين الحنبلي، ص ٢٤١.

(٢) Creswell, Early Muslim Architecture, P.263.



قبة الصخرة

وبالرغم من الزلزال العظيم الذي حدث سنة ١٠١٦ م بقيت محافظة على معالمها الأساسية[١]، وأنت إذا دخلت لا تزال تقرأ على أحد جدرانها هذه الكتابة بالخط الكوفي: «أمر ببناء هذه القبة المباركة عبد الله عبد (الله الإمام المأمون أ) مير المؤمنين في سنة ٧٢ هجرية غفر الله له»[٢] ويظهر أن الكلمات بين القوسين الكبيرين وضعها عمال المأمون الخليفة العباسي بعد أن محوا ما كان مكانها وهو (الملك)، وأول من انتبه إلى ذلك البحاثة De Vogué [٣].

إن أهمية قبة الصخرة منذ بنائها جعلها محط الأنظار، ووصفها الكثيرون من المؤرخين وذكرها الرحالة في أسفارهم وقد أُجري حديثاً العديد من الدراسات على هذا المبنى من الناحيتين المعمارية والفنية[٤].

«ب» المسجد الأقصى: وقريباً من قبة الصخرة شيد عبد الملك مسجداً آخر هو المسجد الأقصى[٥]، وهذا أمر معترف به لعبد الملك؛ لأنه كان لدى هذا الخليفة الأموي مخطط لإعمار القدس بحيث يبني فيها قصراً لإقامته، وآخر لإدارة الإمبراطورية، وثالثاً للأسرة المروانية[٦]. فكأن عبد الملك كان ينظر إلى ما فعله هيرودس الكبير في تلك المدينة وأراد أن يقوم بشيء شبيه بذلك.

(١) تاريخ ابن واضح، لليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٢.
(٢) راجع كتاب تاريخ العرب لفيليب حتي ص ٢٨٣.
(٣) De Vogué, Temple de Jerusalem, P.85-86.
(٤) الحائر، لفواز طوقان، ص ١٠٤.
(٥) فتوح البلدان، للبلاذري، ج٩، ص ١٦٤ ـ ١٦٦.
(٦) الحائر، لفواز طوقان، ص ١٠٤.

يقول الدكتور نقولا زيادة: «هل معنى هذا أن عبد الملك كان يريد أن يتخذ من القدس عاصمة للدولة؟ هذا سؤال نحتفظ به معلقاً إلى أن يُتاح لنا أو لغيرنا الإجابة عليه»[١].

«ج» **المسجد الأموي**: بناه الوليد بن عبد الملك أعظم مشيّد للجوامع في العصر الأموي. يقول عنه الأستاذ كرد علي: «كانت أيامه من أبرك أيام بني أمية، عمَّر الجوامع العظام، وبث في الأمة روح العمران في كل مكان»[٢] وقد ذكر ياقوت الحموي هذا الجامع فقال: «وأما جامعها (أي دمشق) فهو الذي يضرب به المثل في حسنه، جامع المحاسن، كامل الغرايب، معدودٌ من إحدى العجائب، قد زُود بعد فرشه في الرخام. بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان وكان ذا همَّة في عمارة المساجد. بدأ بعمارته سنة ٨٧ هجرية وقيل ٨٨ هجرية، وقد أنفق عليه خراج المملكة سبع سنين... قيل إنه عُمل في تسع سنين وكان فيه عشرة آلاف رجل في كل يوم يقطعون الرخام، وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب، فلما فرغ، أمر الوليد أن يسقف بالرصاص»[٣].

قيل: «إن ملك الروم أرسل وفداً لزيارة المسجد، فلما بلغوه ومرّوا في صحنه استقبلوا القبلة، فرفعوا رؤوسهم ونكّس رئيسهم، فاصفر لونه فقال له: ما بك؟ قال: إنا كنا معاشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة لا بد أن يبلغوها»[٤].

ونرى المؤرخ والمستشرق الروسي فاسيلي فلاديمتروفيش بارتولد الذي اتَّسمت أبحاثه في تاريخ الإسلام بالكثير من الجدية، وكان يُـجيد لغات العالم

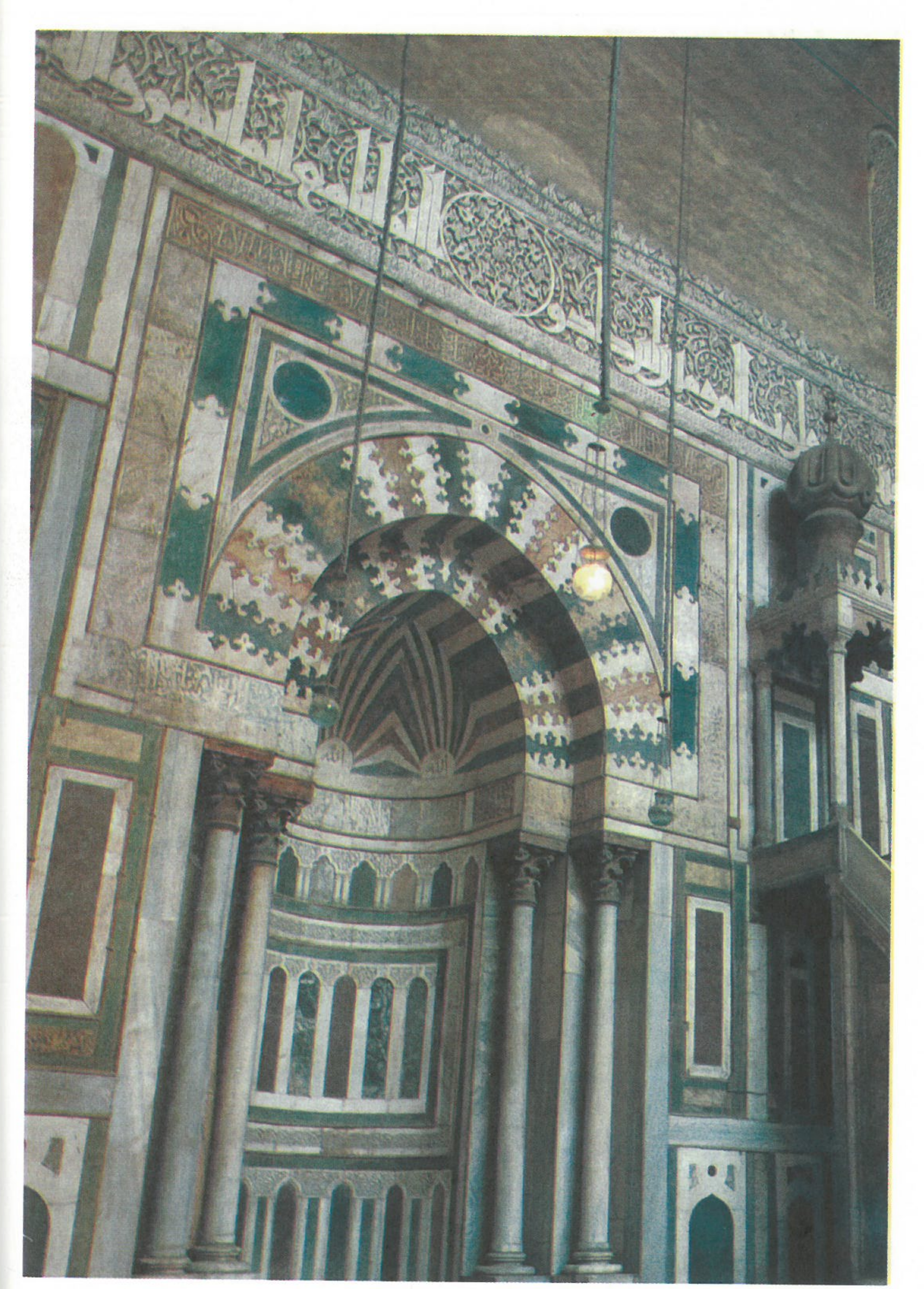
---

(١) عن محاضرة ألقاها الدكتور زيادة في المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي، عمان ١٩٨٧.

(٢) خطط الشام، لمحمد كرد علي، ج ١، ص ١٦١.

(٣) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ج ٢، ص ٥٩٠ ـ ٥٩٥.

(٤) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ج ٢، ص ٥٩٠ ـ ٥٩٥.



المسجد الأقصى

العربي الإسلامي الثلاث العربية والفارسية والتركية، نراه يبدي إعجابه بالوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥) ـ الذي امتدت الدولة الأموية على عهده من إسبانيا إلى الهند وآسيا الوسطى ـ كما يشير إلى أبنيته الكبرى في الحجاز والشام وبخاصة الجامع الأموي بدمشق الذي ظل إلى العهد العباسي من أفخم مساجد العالم الإسلامي قاطبة.

هذا ونذكر عن الطبري قوله: «إن الوليد كان صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع وكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فلما وَلِيَ سليمان وكان صاحب زواج فإذا الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري. فلما وليَ عمر بن عبد العزيز كان الناس يلتقون، فيقول الرجل للرجل: ما وِردُك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟»[١]. وكلمة حق تسجَّل لهذا الخليفة وتقاه ما ورد عن لسان الخليفة العباسي الواثق أنه قال: «إني أستحيي أن يكون في بني أمية مثل عمر ولا يكون مثله في بني العباس»[٢].

«د» مسجد المدينة: من مآثر الوليد العمرانية مسجد المدينة. قيل إنه بعث إلى ملك الروم يعلمه أنه هدم مسجد رسول الله ﷺ فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهباً ومائة فاعل، وأربعين حملاً فسيفساء فبعث الوليد ذلك إلى عمر بن عبد العزيز فأصلح به المسجد[٣].

«هـ» تذهيب الكعبة المشرفة: ومن أعماله أيضاً تذهيب الكعبة المشرفة. روى اليعقوبي أن الوليد بعث إلى خالد بن عبد الله القسري واليه على مكة بثلاثين ألف دينار فضُربت صفائح وجُعلت على باب الكعبة وعلى الأساطين التي في داخلها وعلى الأركان والميزاب، فكان أول من ذهَّب البيت في الإسلام[٤].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، مجلد ٢، ص ١٢٧٣.
(٢) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، مجلد ٢، ص ١٢٧٣.
(٣) تاريخ ابن واضح، لليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤٠.
(٤) تاريخ ابن واضح، لليعقوبي، ج ٢، ص ٢٤٠.

«و» مسجد الرملة: بناه الخليفة سليمان بن عبد الملك في فلسطين وسماه الجامع الأبيض، وزعم الدكتور فيليب حتي: «أن أنقاضه ظلت باقية حتى أوائل الحرب الكبرى الماضية»[١].

٢ ـ بناء القصور

أهم القصور في الأردن سوريا ولبنان.

إن التعمق في الحديث عن القصور التي بناها الأمويون أمر صعب، والبحث فيه يتطلب دراسة عميقة لا مجال للخوض فيها. وإنما سآتي على ذكر الأهم منها، وإني أُحيل القارىء الكريم إلى المرجع القيّم الذي استقيتُ منه معلوماتي والذي وضعه الدكتور فواز أحمد طوقان واسمه «الحائر» وهو بحث مستفيض عن القصور الأموية في البادية[٢].

لم يقتصر الأمويون على بناء المساجد، وإنما تعدّوها إلى القصور فشيَّدوا عدداً وافراً منها تدل على عظمتهم في هذا المضمار. وكانوا يبدلون مقر أعمالهم للراحة والاستجمام من حين إلى آخر، فمن المعروف أن معاوية وعبد الملك بن مروان كانا يصطافان في بعلبك أحياناً[٣]. وكان معاوية والوليد بن يزيد، وعبد الملك بن مروان يشتون في الصنَّبرة وهي بلدة تقع مقابل عقبة أفيق في منطقة بحيرة طبريا، وقد بنى هشام بن عبد الملك قصراً في المفجر شمال أريحا ليشتو فيه. ورُوي أن الوليد بالذات أطال الإقامة في الصنَّبرة وكان يدير شؤون الدولة منها[٤].

«أ» قصر الخضراء: بناه معاوية بن أبي سفيان بالقرب من الجامع الأموي الذي كان في ذلك الحين ينقسم إلى جناحين احتفظ المسيحيون بأحدهما

---

(١) تاريخ العرب، لفيليب حتي، ص ٢٨٣.
(٢) الحائر ـ بحث في القصور الأموية في البادية، لفواز أحمد طوقان.
(٣) بحث في القصور الأموية في البادية، لفواز أحمد طوقان، ص ١١٨.
(٤) بحث في القصور الأموية في البادية، لفواز أحمد طوقان، ص ١١٩.

واستولى المسلمون على الآخر وجعلوه مسجداً، إلا أن معالم هذا القصر درست ولم يبق له أي أثر اليوم[1].

«ب» **قصر الرقْط**: أمر معاوية ببنائه في مكة وأحضر له بنائين من الفرس وكانوا يبنونه بالجص والآجر[2].

«ج» **قصر عميرة**: اكتشفه في القرن الماضي سنة ١٨٩٨ العالم الأثري Professeur Alois Musil، يقع شرقي نهر الشريعة شمال البحر الميت. استنتج أحد الباحثين الإفرنج وهو Von Bercham أن بانيه هو الوليد بن عبد الملك، وذلك حوالى سنة ٧١٢ ـ ٧١٥ ميلادية وقد زُيّنت جدرانه بنقوش عربية جميلة[3].

«د» **قصر المشتّى**: يعود هذا القصر إلى زمن الوليد بن يزيد الذي أفرط في زخرفته وزركشته. أهم ما فيه واجهته الجنوبية (طولها ١٤٤ م وارتفاعها ٦ أمتار) المحفورة في الحجر العنبري اللون. تمثل المنحوتات في هذه الواجهة أوراق الشجر والأزهار وسائر حيوانات البادية وطيورها. ما زالت بقايا هذه الواجهة في موقعها الأصلي. أما بقيتها فقد نُقلت إلى متحف برلين هدية من السلطان عبد الحميد إلى حليفه الألماني القيصر غليوم الثاني في مطلع هذا القرن[4].

«هـ» **قصر الحير أو (الحائر)**: يقع هذا القصر على بعد ٦٤ كيلومتراً إلى الغرب من تدمر. وكان يطلق عليه في السابق «رصافة هشام» لقربه من الرصافة. يتألف قصر الحائر من قصرين هما الحائر الشرقي والحائر الغربي. تم كشف هذا الأثر من قبل البحاثة دانييل شلومبرجه Daniel Schlomberger والقائمين على مديرية الآثار العامة في سوريا وضناً منهم بأن تذهب روعة هذا البناء هدراً، فقد أشاروا بنقل واجهته إلى متحف دمشق وإعادة تشييدها هناك في جناح خاص[5].

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ١٥٩.

(٢) أخبار مكة، للأزرقي، ج ١، ص ٤٤٩ ـ ٤٥١.

(٣) Von Bercham, au pays des Moab et d'Edom, P.300-301.

(٤) E. Diez, Mshatta in the Encyclopedia of Islam, P.612-614.

(٥) الحائر ـ بحث في القصور الأموية في البادية ـ فواز طوقان.

«و» **قصر الرصافة**: يقع هذا القصر إلى الشمال من أريحا في موقع يقال له «خربة المفجر» وهو قصر ضخم فاخر يتألف من أربعة أقسام وحديقة كبيرة. أشهر ما فيه التماثيل الجبصية للغانيات والإماء والأرضيات الفسيفسائية الفائقة الصنعة، وتوجد أوجه شبه في طريقة نحت الجبص أو سكبه بينه وبين قصر الحائر الغربي، وكما هو معروف فإن كليهما يعود في ملكيته إلى الخليفة هشام[1].

«ز» **مدينة عنجر الأموية أو (عين الجر)**: أهم أثر حضاري خلّفه الأمويون في البقاع وهو عبارة عن مدينة في جبال لبنان الشرقية مبنية على التخطيط الروماني الشبيه بتخطيط مدينة جرش. يحتويها سور حصين، وبداخلها شوارع وأسواق تتقاطع تحت قبة كبيرة، وفيها قصر عظيم ومسجد وحمّام كبير في أرضه فسيفساء نفيسة[2]، وتقام حالياً كل سنة في آثاره مهرجانات مهمة.

ويظهر أن ذلك العصر شهد كعصرنا الحاضر أناساً حرصوا على اقتناء القصور والدور فلم يقنع بعضهم بدار واحدة أو بقصر واحد. روي عن عبد اللّه بن عامر أنه كان يملك دوراً كثيرة في الطائف[3].

هذا عدا الأبنية التي كانت تُشيَّد في المنتزهات والمصايف، منها الطائف والعقيق، مثل قصر عمرو بن العاص بالعرصة، وقد تغنى به الشعراء حتى إن أحدهم فضّله على أبواب جيرون بدمشق وقال:

القصـرُ فـالنخـلُ فـالجمّـاء بينهمـا ... أشهى إلى القلبِ من أبواب جيرونِ
إلـى البـلاطِ فمـا حـازت قـرائنـه ... دورٌ نزحنَ عن الفحشاءِ والهُونِ[4]

---

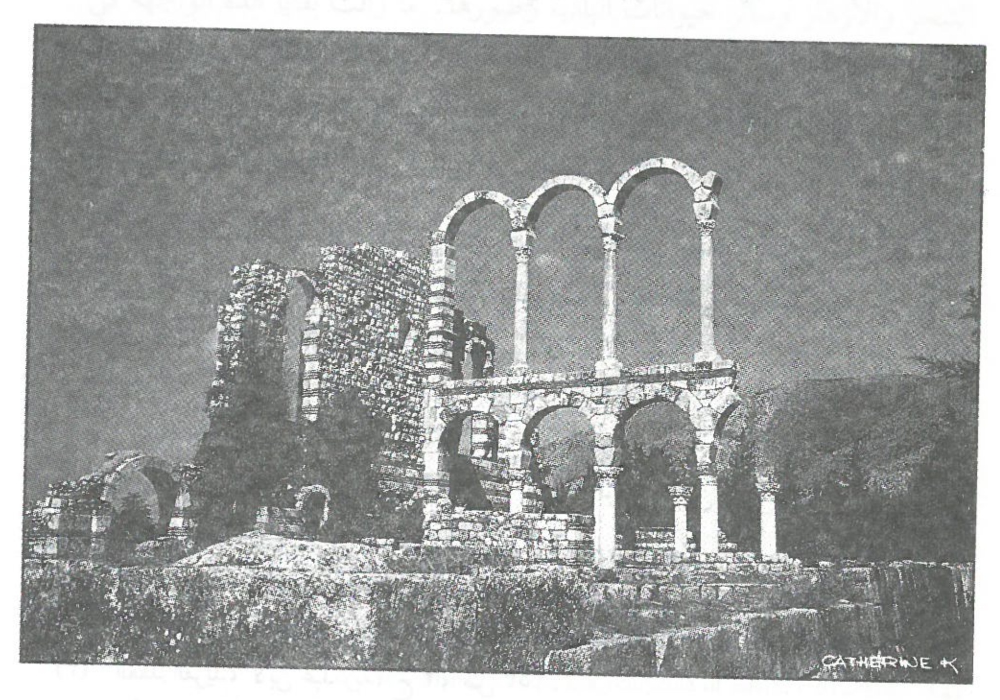
(١) Oleg Grabar, The Omayad Palace of Khirbatal Mafjar, P.228-235.

(٢) Emir Maurice Shehab, The Omayad at Anjar, P.17-25.

(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ١٥٣.

(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٧.





مدينة عنجر الأمويّة

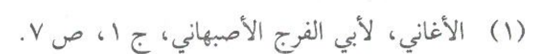
وقد أمرت سُكينة بنت الحسين بتشييد قصر لها في العقيق وكانت تذهب إليه مع جواريها للنزهة[١]. ويظهر أن اتساع رقعة البناء، وكثرة القصور في العقيق كاد يؤدي إلى تشويه جمال عرصته المشهورة مما حدا بخلفاء بني أمية إلى منع البناء فيها محافظة على جمالها[٢].

«ب» التأنق في المعيشة

١ ـ التانق في المآكل

تعلق الأمويون بالحضارة الجديدة المقتبسة التي نقلت إليهم شتى المآكل لم يكن لهم عهد بها مثل: اللوزينج والسكباج والفالوذج والخشاف، فتفننوا بصنعها ما شاءوا. وكانوا قبل ذلك على بساطة العرب لا يعرفون من الطعام إلا ما طُبخ باللحم والماء[٣]. ففي هذا العصر تطورت معيشتهم واستعملوا شتى الطرق في طبخ اللحوم والألبان والتوابل[٤]. ولم يعدم هذا العصر أناساً كانوا يبيعون الطعام جاهزاً، من ذلك أن المغني سائب كان يبيع الطعام في المدينة[٥].

«أ» **مآكل الخلفاء**: يظهر أن معاوية كان يتناول أربع وجبات. قال المسعودي: «كان يؤتى له بالغذاء الأصفر وهو فضلة عشاء الليل من جدي بارد أو فرخ أو ما شابهه، وهناك الغذاء الذي كان يتناوله عند الظهر أو قبله، ويليه طعام العصر وهو ما نسميه اليوم ـ العصرونية ـ وهنا يجتمع الخاصة عند أمير المؤمنين معاوية فإن كان الوقت شتاءً أتاهم بزاد الحاج (هكذا وردت) من الأخبصة اليابسة والخشكانج والأقراص المعجونة باللبن والسكر ودقيق السميد



(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٧.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٧٣.
(٣) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ج ٣، ص ٦٤١.
(٤) المستطرف، للإبشيهي، ج ١، ص ١٦٣.
(٥) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج ٥، ص ٧٨.

والكعك المسمَّن والفواكه اليابسة. وإذا كان الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة، ثم يتبع ذلك العشاء، ويأتي قبل المغرب، ثم إذا مضى ثلث الليل تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة»[1].

وروي عن سليمان بن عبد الملك أنه كان أكولاً نهماً لا يشبع. وكانت سفرته غنية بألوان الطعام. «قيل إنه نزل مرة ضيفاً على شمردل وكيل عمرو بن العاص في الطائف، فقدّم له جدياً ودجاجاً هندياً وحريرة، فأكل ثم نادى برئيس طعامه فقال: أفرغت من غذائي؟ قال: نعم، قال: وما هو؟ قال: ثمانون قدراً، قال: ائتني بها قدراً قدراً. قال: فأكثر ما أكل من كل قدر ثلاث لُقم، وأقل ما أكل لقمة»[2].

روى المسعودي: «أنه كان صاحب أكل يجوز المقدار. وكان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل عراقي، وكان ربما أتاه الطباخون بالسنافير التي منها الدجاج المشوي وعليه جُبة الوشي المثقلة بالذهب، فلنهمه وحرصه على الأكل كان يدخل يده في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها»[3].

فهذه الروايات وغيرها ـ وربما هي مبالغ فيها ـ تدل على أنواع المآكل اللذيذة التي تعرّف العرب عليها بعد الفتوحات، ونقلت إليهم خاصة من الفرس، ودليلنا على ذلك تلك الأسماء الأعجمية التي وردت في مآكلهم كما ذكرت.

«ب» مآكل الخاصة: هذا وقد سرت عدوى هذا التأنق إلى الأشراف فبذلوا جهودهم في صنع المآكل الشهية. روى الأصبهاني «أن زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان كان بخيلاً جداً، ومع ذلك فإنه لما حجّ مرة مع زوجته سكينة بنت الحسين لم يترك أوزة ولا دجاجة ولا بيضاً ولا فاكهة إلا حملها معه»[4].

---

(١) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٣٨٥.
(٣) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ٤٠١.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٧٢.

وذكر الرواة لنا «أن عبد الملك ولَّى أمية بن عبد الله بن خالد على خراسان فأقام بها مدة ثم كتب إلى الخليفة يقول: إن خراج خراسان لا يفي بمطبخي»[1]. وإذا علمنا أن خراج خراسان كان يبلغ آلاف الدنانير كما تزعم الرواة لمسنا درجة هذا التأنق في المآكل لعلَّ كبار أثرياء اليوم لم يتوصلوا إليه.

ورواية أخرى وردت في «البيان والتبيين» تدل على مبلغ الجهد الذي كان يُبذل في زخرفة الخوان وتزيينها بأشهى الأطعمة أسردها كما هي: «قيل للجارودي بن أبي سيرة: ماذا تصنعون عند أبي الأعلى إذا كنتم عنده؟ قال: يشاهدنا بأحسن استماع، وأحسن حديث، ثم يأتي الطباخ فيمثل بين عينيه فيقول: ما عندك؟ فيقول: عندي لون كذا وكذا وجدْي كذا ودجاجة كذا ومن الحلو كذا. قال: ولمَ يسأل عن ذلك؟ قال: ليقصر كل رجل عما لا يشتهي حتى يأتيه ما يشتهي، ثم يأتون بالخوان فيتضايق ونتسع ويقصر ونجتهد».

«ج» الولائم: كان الناس يولمون في مناسبات خاصة كحفلات الأعراس والختان والولادة. قيل: إن الحجاج أقام وليمة فنحر الذبائح ودعا عامة الناس احتفالاً بختان أحد ولده[2]. وذكر الجاحظ أنه كان لمعاوية في كل يوم أربعون مائدة يتقسمها وجوه جنده في الشام[3]. وكان الوليد إذا حج أطعم الناس بعرفة ثم نصب الموائد. وهو أول من أجرى عادة إطعام الناس في شهر رمضان في المساجد[4].

وكان الحجاج يقيم الولائم في رمضان فيضع في كل يوم من أيام رمضان ألف خوان على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأوزة بالسكر، وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقدها، وكان يصنع في غير رمضان

---

(١) لأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ٥٦.
(٢) المقدمة، لابن خلدون، ص ١٥١.
(٣) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ١٥.
(٤) تاريخ ابن واضح، لليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤١.

خمسمائة خوان[1]. وكان يوسف بن عمرو والي العراق في أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة خوان أيضاً[2].

ذكر صاحب «العقد الفريد» أن يزيد بن المهلب دعا يوماً بغداء لضيوفه، «فأتي بطعام ما أنكروا منه أكثر مما عرفوا»[3]. هذا وقد أقبل أهل الدين على لذيذ الطعام وفاخره. قيل: «إن الحسن البصري قال لفرقد: بلغني أنك لا تأكل الفالوذج، قال: يا أبا سعيد أخاف أن لا أودي شكره. قال: يا لُكع! وهل تؤدي شكر الماء البارد في الصيف والحار في الشتاء؟ أما سمعت قول الله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ مَا رَزَقْنَاكُم﴾[4]. وروي أيضاً أن الحسن سمع رجلاً يعيب أكل الفالوذج فقال: «لبابُ البرِّ، بلعابِ النحلِ، بخالصِ السمنِ، ما عاب هذا مسلم»[5].

هذا بالإجمال ما كانت عليه مآكل الخلفاء والخاصة من الناس، أما عامتهم فيظهر أن العدوى لم تتسرب إليهم، لأنهم لم ينعموا بالثروة، فظلوا على سذاجتهم يأكلون الأطعمة البسيطة ومنها: الثريد وكان يصنع في ولائم الأعراس[6]، والخبيص وكان يقدَّم في ولائم الولادة. قيل: «ولد لعبد الرحمٰن بن أبي ليلى مولود فصنع الأخبصة ودعا الناس وفيهم مساور الوراق فلما أكلوا قال مساور:

مَنْ لَمْ يُدَسِّمْ بالثَّريد سِبالَنا ... بعد الخبيصِ فلا هناءَ لفارسِ[7]

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٧.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ١١٥.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٧.
(٤) سورة البقرة، الآية ٥٧.
(٥) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٣٨١.
(٦) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٨٩.
(٧) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٣٨٢.

وكانوا يأكلون من اللحوم لحم الإبل وهو أبخس أنواع اللحوم. قال الشاعر جرير يهجو بني سليط ويعيّرهم بأكله:

عَضاريطُ يشوونَ الفَراسِنَ بالضُّحى»[1]

والفراسن هي أخفاف الإبل. كما أنهم كانوا يأكلون صغار المعزى. قيل: مرَّ الفرزدق بأحدهم فدعاه إلى الغداء وكان جدياً رضيعاً[2]. ذلك كله يدلنا على أنه إلى جانب الحياة المترفة التي كان يحياها الأغنياء وجدت طبقة من الشعب عاشت حياة ضنك وبؤس لم تعرف من الزاد سوى الخبز واللبن. «روي أن معاوية وقف على امرأة من كنانة فقال لها: هل من قرى؟ قالت: نعم، قال: وما قِراك (أي ضيافتك)؟ قالت: عندي خبزٌ خمير، ولبنٌ قطير، وماءٌ نمير»[3].

ولقد حلَّ هذا الفقر حتى بالشاعر جرير فذهب يشكو بؤسه وقلّة ذات يده لعبد الملك بن مروان فأشفق عليه الخليفة وأعطاه مائة ناقة علّها تسدّ حاجة أم حزرة. وكانت إذا ما ألحّت عليه أم أولاده بطلب لذيذ الطعام قال:

تُكلّفُني معيشةَ آلِ زيدٍ ... ومَنْ لي بالمُرَقَّقِ والصِّنابِ[4]

٢ ـ التأنق في اللباس والهيئة

«أ» **التأنق عند الخلفاء**: رغب الخلفاء بوجه عام في الحياة الجديدة وكانوا حريصين أن يبدوا بأحسن حلّة وأجمل زيّ. ويظهر أن ميل الأمويين إلى هذا البذخ والتأنق في اللباس كان يعدّ مظهراً من مظاهر الاعتزاز في الإسلام ومفاخرة العدوّ القريب منهم. وكانوا يودّون أن يُبرزوا للأجنبي ما هم عليه من ترف ومدنية. ذكر الطبري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام فرأى

---

(١) النقائض ـ جرير والفرزدق ـ ج ١، ص ٩ ـ ١٠.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٣٨٢.
(٣) البيان والتبيين، للجاحظ، ج ٢، ص ٢١٦.
(٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ١، ص ٨.

معاوية في موكب يتلقاه وراح إليه في موكب فقال له عمر: يا معاوية تروح في موكب وتغدو في مثله وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! قال: «يا أمير المؤمنين إن العدو منا قريب ولهم عيون وجواسيس فأردت أن يروا للإسلام عزّاً»[١].

ونظير ذلك ما رواه ابن خلدون في مقدمته أنه خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام وكان معاوية واليه عليها، ورأى ما هو فيه من أبهة الملك، استنكر ذلك وقال: «أكسروية يا معاوية؟ فأجابه: يا أمير المؤمنين إنا في ثغر تجاه العدوّ، وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة»[٢].

ومهما يكن من أمر فإن الأمويين أمعنوا في التأنق في اللباس والهيئة وبذلوا من أجلهما المبالغ الطائلة، فقد روى ابن عبد ربه: «أن معاوية حج مرة فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء، عليها رحائل الأرجوان، فيها الجواري عليهن الجلابيب والمعصفرات ففتن الناس»[٣].

وذكر صاحب الجاحظ: «أن يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد كانوا لا يلبسون القميص إلا مرة واحدة إلا أن يكون الثوب نادراً معجباً غريباً»[٤].

وروي عن عبد الملك: «أنه لبس مرة حلَّة كانت تتلألأ كأنها الذهب من شدة اللمعان»[٥].

ومما يذكر عن سليمان بن عبد الملك وولعه بالملابس الفاخرة أنه كان يلبس الثياب الموشّاة وكان لا يدخل عليه أحد من أهل بيته إلا في الوشي،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، مجلد ٢، ص ٢٠٧.
(٢) المقدمة، لابن خلدون، ص ١٧٧.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ٣٢٧.
(٤) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ١٥٤.
(٥) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ص ١٤٨.

وكذلك أصحابه وعمّاله ومن في داره، وكان لا يدخل عليه رجل من خدمه إلا في الوشي، حتى الطباخ، فإنه كان يدخل عليه وفي صدره وشي وعلى رأسه قلنسوة طويلة موشّاة. ومن المروي عنه أنه أمر أن يكفّن في الوشي[١].

قيل: ودخل عليه أحدهم فإذا عليه طيلسان أبيض وسروال موشّى فقال له: سبحان الله ما تصنع الحداثة بأهلها، إن هذا من لباس النوم! قال: «لا والله ولكن ليس عندي ثوب أشهر مما ترى»[٢].

وروي عن هشام بن عبد الملك أنه كان مغرماً بالزينة والهندام حتى زعموا أنه لم يكن في بني مروان أعطر منه ولا ألبس. وقيل: إنه خرج مرة حاجًا فحمل ثيابه على ستمائة جمل[٣]. وقيل: دخل عليه حماد الراوية وهو جالس على طنفسة حمراء عليه ثياب خزٍّ حمْر، قد تضمّخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في أوانٍ من ذهب يقلّبه بين يديه فتفوح رائحته[٤].

هذا وقد كان الخلفاء حريصين على اقتناء المجوهرات، قال الأصبهاني: «كان الوليد بن يزيد يلبس من العقود ويغيّرها في اليوم مراراً، كما تغيّر الثياب شغفاً، وكان يجمع الجواهر ويغالي بها»[٥].

وكانوا يتأنقون في سدل شعورهم فيضفرونها، يقول Lammens: إن هذه (الموضة) ترجع إلى عهود قديمة، إذ وُجد على بعض الأحجار الآشورية صورٌ للترجيل، وهي ضفائر كان يعتني بها الفرسان في ذلك العهد[٦].

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرجّل شعره فيقصّر عن أداء واجباته

---

(١) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ٤٠٠.
(٢) البيان والتبيين، للجاحظ، ج ٢، ص ٢٧١.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ٣٣٨.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٥، ص ١١٦.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ٥٩.
(٦) معاوية، للأب لامنس، ص ٣٢٨.

تجاه مؤدبه، فلما سمع بذلك والده عبد العزيز وهو والٍ على مصر، بعث مع الرسول يقول: احلقوا شعر عمر[1].

وروى الأصبهاني أن ميسون كانت تزين يزيد وترجل جمته فإذا نظر إليه معاوية قال:

فـإن مـاتَ لـم تفلـحْ مُـزَيَّـنُ بعـدَه ... فَنـوطي عليـه يـا مُـزَيْـنُ التمـائما[2]

نوطي: أي علّقي.

وكان الخلفاء يتعطّرون. قال الجاحظ: كان معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان: «لا يمشون إلا وعبق الطيب في ثيابهم»[3].

هذا ما كان عليه الخلفاء من تأنق في اللباس، وقد شذّ عنهم عمر بن عبد العزيز في خلافته. قيل: إنه كان أثناء إمارته على المدينة من أحسن الناس لبساً، وأطيبهم ريحاً وأخيلهم في مشيته[4]. فلما تولى الخلافة أظهر زهداً في اللباس.

قيل: دخل عليه مسلمة بن عبد الملك يعوده في مرضه فإذا عليه قميص وسخ، فقال لفاطمة بنت عبد الملك زوجته: ألا تغسلون قميصه؟ قالت: والله ما له قميص غيره. وروي مرة أنه كان يصلي وعليه قميص مرقوع[5].

«ب» التأنق عند الأشراف والخاصة: لم يُقبِل الخلفاء وحدهم على التأنق في اللباس والهيئة وإنما قلّدهم الأشراف والطبقة الخاصة. روي عن مروان بن أبان بن عثمان أنه كان يلبس سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ورداء عدني بثمن ألفي درهم[6].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص ٩.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ٣٣.
(٣) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ١٥٥.
(٤) الطبقات، لابن سعد، ج ٥، ص ٢٤٤.
(٥) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص ٩١.
(٦) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٧، ص ٨٩.

وذكر الطبري عن زياد بن أبيه: «أنه كان يفرق شعره ويلبس قباء سندس ومطرف خز»[1]. وروى ابن عبد ربه: «أن عبيد الله بن زياد كان أول من حصّل الدواوين ومُشّي بين يديه بالعُمُد، ووضع الكراسي، وعمل المقصورة، ولبس الزيادي»[2].

ومما يروى عن عبد الله بن جعفر أنه جاءه شاعر فأنشده فأعطاه جبة منسوجة بالذهب كان قد اشتراها بثلاثمائة دينار[3]، «وكان عمر بن أبي ربيعة يلبس الثياب المصبوغة الموردة وإذا اعتمر لبس تلك الحلل والوشي، وركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج، ويسبل لمّته، وكان من أعطر الناس وأحسنهم هيئة»[4].

«ج» التأنق عند الطبقات الأخرى: لم يفت بعض رجال العامة أن يأخذوا نصيبهم من الملابس والاعتناء بها فقد ذكر الأصبهاني أن ابن ميادة المغني: «كان لبّاساً عطراً ما عرف رجل كان أطيب عطراً منه»[5]. وروى ابن عبد ربه: «أن طويساً المغني كان يلبس ملاءة مصقولة»[6]. كما أنه كان لرجال الزهد والورع أن ساهموا بهذا التفنن في الملابس وحسن الهيئة.

ذكر عن عبد الله بن الزبير: «أنه كان يضع على رأسه من المسك ما لو كان عند أحد لكان له رأس مال»[7].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، مجلد ٢، ص ١١٥.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٤.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١١، ص ٦٨.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٠١.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ٩١.
(٦) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٤١.
(٧) عيون الأخبار، لابن قتيبة، ج ٧، ص ٣٠٣.

«د» التأنق عند النساء الشريفات ونساء العامة: أخذ بعض النساء الشريفات في هذا العهد يمعن في التزين وانتقاء الثياب والهندام والهيئة فلبسن الثياب المعصفرة التي تكاد تشفّ عن أجسادهن وتفنّنّ في وضع الخُمر الرقيقة على وجوههن. يظهر لنا ذلك من قول بعض الشعراء يصف حديثاً جرى بين إحدى صويحباته ورفيقة لها:

وأشِفّـــي البُـــردَ عنـــكِ لـــه   كـــي تَشـــوقِيـــه إذا نَظَـــرا[١]

وقال عمر أيضاً يصف حجابها الشفاف:

أقـــولُ وشـــفّ سِجْـــفُ القـــزِّ عنهـــا   أشمـــسٌ تلـــكَ أم قمـــرٌ منيـــرُ؟[٢]

وقد بلغ ببعضهن أن ابتكرن (موضة) للشعر، قال الأصبهاني: كانت سكينة أحسن الناس شعراً، وكانت تصفّف جمّتها تصفيفاً لم يُر أحسن منه، حتى عُرف ذلك باسم الجمّة السكينية[٣].

وقد استعمل المغنّون والمغنّيات الشعور المستعارة، فجميلة المغنية كانت تلبس وقرة[٤]، كما كانت تضع على رؤوس جواريها شعوراً مدلاة كالعناقيد إلى أعجازهن[٥].

ولو تفحّصنا التماثيل الجصّية المكتشفة في خربة المفجر (قصر هشام) لرأينا شعوراً مختلفة معمولة على شكل لفائف صغيرة متجاورة أو على شكل دوائر متلاصقة مثقوبة في الوسط[٦].

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٢٨١.
(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٢٨٣.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٦٥.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ٢٢٦.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ٢٢٦.
(٦) Khurbet el-Mafjar Hamilton, P.35

وقد استعملت الجواري في هذا العهد العصابات وكتبن عليهن أبياتاً من الشعر وكذلك على الطرة والقلانس والمراوح[١].

وقد رغب النساء في اقتناء المجوهرات واللآلىء فكن يتزينّ بها. قيل: شوهدت سكينة بنت الحسين ومعها ابنتها من مصعب بين مكّة ومنى وقد أثقلتها بالحلي واللؤلؤ فقالت: «والله ما ألبستها إياه إلا لتفضحه»[٢]، تعني أنها تفضح الحلي بحسنها لأنها أحسن منه.

وروي أيضاً عن سكينة أنها كانت ترمي الجمار (في رجم إبليس) فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بخاتمها[٣].

ويظهر أن النساء الشريفات كن يحلّين أرجلهن بالخلاخيل. شكا أحد الرجال من عطل في ساق زوجته فقال:

تجـولُ خَـلاخيـلُ النسـاءِ ولا أرى   لـرملـةَ خِلْخـالاً يجـولُ ولا قلبـا[٤]

وقيل: إن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة ثماني حبات من اللؤلؤ قيمتها عشرون ألفاً[٥].

هذا وقد كانت النساء مغرمات بالعطور. قيل: «التقت رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد العامرية بعبد الله بن قيس الرقيات في المسجد وصدفة لفحته بردنها ففاحت منه رائحة المسك»[٦].

ويظهر أن الكحل كان من متمّمات الزينة. «روي عن عبد الله بن جعفر أنه قال لابنته: عليك بالزينة والطيب واعلمي أن أزْيَنَ الزينة الكحل»[٧].

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٨، ص ١١٦.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٦٥.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٦٦.
(٤) الكامل، للمبرد، ص ١٩٧.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ٥٧.
(٦) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ١٦٦.
(٧) البيان والتبيين، للجاحظ، ج ٢، ص ٧٢.

هذا وقد ساهم نساء بعض العامة إلى حدٍّ ما في التأنق. قيل: «مرّت فتاة بابن هرمة الشاعر، وكان يستحسنها، فإذا هي في ذلك اليوم قوّرت وجهها وتغيّر خلقُها، فسألها عن خبرها، فأجابت استعارَ لي أهلي حلياً وثقبوا لي أُذني لألبسه، وكانت مدعوة لحضور ـ أحد الأعراس ـ فورم وجهي وأذناي فردّوه ولم أشهد العرس»[1].

٣ ـ التأنق في الأثاث

كان للموالي تأثير في المجالس باقتناء الأثاث واستعمال الكراسي والندماء، وأول من استخدمها زياد بن أبيه عندما كان عاملاً على فارس قلّد بها مرازبة الفرس[2]، ثم انتقلت إلى الشام فكان معاوية يجلس زوّاره على الكراسي بينما هو على السرير[3]. وعرفت مجالس الندماء، وقد اختلفت مهمة النديم بالنسبة للخليفة، فقد يكون ناصحاً أو مسلّياً يلبّي رغبة الخليفة، وقد عُرفت مؤهلات النديم بأن عليه مراعاة حق الخلافة[4]، وأن يكون معتدل الذوق سليم الجوارح والأخلاق عالماً بالنادر من الشعر، والسائر من المثل متضلّعاً في كل فن، فإذا ذكرت الآخرة ونعيم أهل الجنة حدّثه، وإذا ذكرت النار حذّره[5]، كما يجب أن يكون النديم يفهم بالإشارة فإذا شعر بنعاس الخليفة توارى عن المجلس[6].

وقد كان للأشراف ولع في اقتناء فاخر الأثاث والرياش من الخز والديباج. ومن شعر لعمر بن أبي ربيعة في فاطمة بنت عبد الملك وقد حجّت فأتيح له مشاهدة خيمتها من الداخل قال:

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ٣٠.
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج ٥، ص ٦٦٧.
(٣) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٣، ص ٣٩.
(٤) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ج٥، ص ٣٠.
(٥) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ،ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٦) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ٧٩ ـ ٨٠.

يـا خليلـي شفَّنـي الـذِّكَـرُ ... وحُمـولُ الحـيِّ إذْ صَـدروا
ضـربـوا حُمْـرَ القبـابِ لهـا ... وأُديـرت حـولهـا الحُجَـرُ

إلى أن يقول:

فـإذا ريـمٌ علـى فـرشٍ ... فـي حجـالِ الخـزِّ مختـدرُ[1]

وقيل: دخل الشعبي على عائشة بنت طلحة فوجدها موسَّدة[2] السرير. وروى صاحب الأغاني أنه لمّا بنى بها عبد الله بن عمر مهّدت له يوم عرسه فرشاً لم يُر مثلُها، سبعة أذرع في عرض أربعة[3]. كما ذكر صاحب الأغاني أن إسماعيل بن يسار النسائي كان يبيع الفرش والنجد التي تتخذ للعرائس[4]، وهذه عادة ليس من المستبعد أن يكون العرب كسبوها عن الفرس، وليس غريباً أن يكون إسماعيل هذا هو فارسي الأصل قد أدخلها إلى الحجاز.

وقد شاع استعمال الأواني الفضية، ذكر صاحب العقد الفريد أن جريراً الشاعر طلب من عبد الملك أن يمنحه صحافاً من الفضة كان يقدمها بين يديه فأجابه إلى ذلك[5].

«ج» الـلـهـو

قلت فيما سبق: إن اختلاط العرب بالشعوب الأجنبية من فرس وروم وسواهم كان له أثر كبير في حياتهم الاجتماعية فرقّت الأمزجة، ورهفت الأذواق، وارتفع مستوى المعيشة وذكرت أن الشعوب المغلوبة قد حملت معها إلى العرب أسباباً كثيرة للترف والحضارة، وكان لا بد أن تجلب شيئاً آخر نعدّه

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٧٩.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٨٦.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ٣٨١.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ١١٩.
(٥) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ١، ص ١٥١.

متمماً لهذين المظهرين، ألا وهو اللهو في شتى أنواعه من غناء وشرب وعبث إلى غير ذلك مما سيُذكر في حينه.

١ ـ الغـنـاء

«أ» لمحة عن الغناء القديم عند العرب: الغناء أحد الفنون الجميلة وهي الشعر والموسيقى والنحت وسواها. والإنسان بطبعه ميّال إليه لأنه يعبّر عن خوالج النفس ويترجم عواطفها. والغناء عند أمة من الأمم يتناسب مع طبائعها ونظم معيشتها. ولمّا كان العرب أهل ماشية وأنعام وخيام لم يجدوا أصدق تعبيراً عن عواطفهم من الشعر، «فلهجوا به وطربوا بتلاوته بلا ترنيم وغناء، وتلك أول خطوة خطوها نحو الموسيقى لأنها بنت الشعر أو أخته»[١].

ثم ظهر الحداء. زعم المسعودي: «أن أول من ترنم بالحداء هو مضر بن نزار فإنه سقط عن جمل فانكسرت يده وكان صوته جميلاً فجعل يصرخ وا يداه! وا يداه، فاستساغت الإبل وطاب لها السير فاتخذه العرب حداء»[٢].

هذا ومهما يكن من صحة هذه الرواية فالمهم أن نعلم أن الغناء بدأ عند العرب بترنيم الشعر وترديده على نغمات أوحتها لهم صحراؤهم، وما كان يحيط بهم من مظاهر طبيعتهم.

قال ابن رشيق: «وغناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه: النصب، السناد، والهزج. فالنصب هو غناء الركبان والفتيان. وقيل: هو الغناء الجنابي. اشتقه رجل من كلب يقال له: جناب بن عبد الله بن هبل فنُسب إليه. وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات، أما الهزج فالخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخفّ»[٣].

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج ٥، ص ٣٣.
(٢) مروج الذهب، للمسعودي، ج ١، ص ٩٢.
(٣) العمدة، لابن رشيق، ج ٢، ص ٢٤١.

أما آلات الموسيقى عندهم فأشهرها الدفّ، وهو على أشكال، فمنها المستدير والمربّع والكبير والصغير، والمزمار على أبسط أنواعه، ويبدو أنهم كانوا لم يعرفوا سوى هاتين الآلتين وما يتفرع من آلات النفخ والقرع[١].

هذا على العموم ما كان عليه العرب أيام جاهليتهم، أما قبيل بزوغ فجر الإسلام فقد خطا العرب خطوات تدلّ على شيء من التقدم في حقل الغناء. وقد كان لأهل اليمن نصيب وافر منه، ونحن نعلم أن هذا القطر خضع زمناً لسلطتي الأحباش والفرس وتأثر بحضارتهما فكان لا بد أن يقتبس شيئاً من الغناء الذي هو أحد مظاهر الحضارة، فقد ذكر الأصبهاني «أن أعشى بن قيس بن ثعلبة كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم، ويمدح ملوكهم ويقيم عندهم حتى يسقوه الخمرة ويسمعوه من الغناء الرومي فإذا انصرف أجزلوا صلته»[٢].

وأخبرنا الأصبهاني: «أن امرأ القيس كان يسير في أحياء العرب ومعه من شذاذ العرب أخلاط من طيء وكلب وبكر بن وائل، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه وخرج إلى الصيد فتصيد، ثم عاد فأكل وشرب الخمر وسقاهم وغنّته قيانه»[٣].

هذا وقد ازدهر الغناء في البلاط الغساني الذي غص بالمغنيات. ذكر الأصبهاني «أنه كان عند جبلة بن الأيهم مغنيات روميات يغنّين بالرومية وأخريات يغنّين غناء الحيرة»[٤]. على أننا لا ندري متى أدخل الغناء المنظم إلى الحجاز. يزعم المسعودي: «أن قريشاً لم تكن تعرف من الغناء غير النصب حتى قدم النضر بن الحرث بن كلدة وافداً على كسرى بالحيرة فتعلّم ضرب العود والغناء عليه فقدم مكة وعلّم أهلها فاتخذها القينات»[٥].

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج ٥، ص ٣٣.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ٧٣.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ٦٨.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٥.
(٥) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٨، ص ٩٤.

ومهما يكن من أمر فإن العرب في الجاهلية عرفوا شيئاً من الغناء، وليس باستطاعتنا الشك في ذلك، إنما يظهر أن هذا الغناء لم يبلغ الدرجة التي وصل إليها بعد الإسلام، وخاصة في العهد الأموي ومن بعده العصر العباسي.

«ب» الغناء في صدر الإسلام: هل الغناء من اللهو المباح؟

لم يرد في القرآن الكريم نص صريح بتحريم الغناء أو كرهه، بل ذهب بعض المفسّرين إلى الاعتقاد بأن قول الله عز وجل: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ دلالة على الصوت الحسن(١).

أما الأحاديث في هذا الموضوع فمتضاربة، منها ما يجعله لهواً مباحاً، ومنها ما يشير إلى تحريمه. فمن الأولى ما رواه البخاري بإسناد عن عائشة أم المؤمنين: «أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها والنبي ﷺ عندها يوم عيد فطر أو أضحى وعندها قينتان تغنيان بما تقاذفت به الأنصار يوم بعاث، فقال: مزمار الشيطان. وأعادها مرتين فقال ﷺ: «دعها يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وإن عيدنا هذا اليوم»(٢).

ومما يدل على تحليل الغناء أيضاً ما رواه ابن عبد ربه عن النبي ﷺ إذ قال لأبي موسى الأشعري لمّا أعجبه حسن صوته: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود»(٣). كذلك روي عن الرسول ﷺ أنه قال لعائشة يوم عرس إحدى الفتيات: «أهديتم الفتاة لبعلها؟» فقالت: نعم. قال: «أفبعثتم معها من يغني؟» فقالت: لا، قال: «أوَما علمت أن الأنصار قومٌ يعجبهم الغزل؟ ألا بعثتم معها من يقول:

أتينـاكُـمْ أتينـاكُـمْ ... فحيُّـونـا نحيِّيكـمْ
ولـولا الحبَّـةُ السَّمْـرا ... ءُ لم نَحْلُلْ بِواديكمْ»(٤)

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٢٩.
(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص ٢٤٧.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٢٩.
(٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٣١.

وقيل: مرَّ رسول الله ﷺ بجارية في ظل فارع وهي تغني:

هـلْ علـيّ ويحَكُـمْ ... إن لهـوتُ مـن حَـرجْ؟

فقال ﷺ: «لا حرج إن شاء الله»(١). وقد روى صاحب الأغاني هذه القصة وزعم أن القينة كانت سيرين جارية الشاعر حسان بن ثابت(٢).

على أننا لا ندري موقف الخلفاء الراشدين من الغناء والمغنّين، وإن كنا ذكرنا أن أبا بكر رضي الله عنه استنكره، ولعله (أي الغناء) لم يزدهر أيام الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ولم يرغبا به خشية إقبال الناس عليه وانشغالهم به عن الفتوحات والجهاد، يقول Farmer في كتابه تاريخ الموسيقى عند العرب ما معناه «أنه لم يكن لدى الخليفتين أبي بكر وعمر ولع بالمغنى الصحيح في الموسيقى وذلك يرجع إلى انشغالهم في الفتوحات»(٣).

وفي خلافة عثمان رضي الله عنه تطور الغناء بتطور الحياة الاجتماعية بالرغم من معارضة المسلمين المتعصبين وقد كان علي كرّم الله وجهه خليفة عثمان شاعراً وهو أول خليفة سمح بدراسة العلوم والشعر والموسيقى(٤).

«ج» مصدر الغناء في العصر الأموي: شاع الغناء في العصر الأموي وراجت بضاعته بتعدد أسباب الحضارة واتساعها وكان غناءً جديداً اختلف عن الغناء الذي عرفه أهل الجزيرة العربية من قبل، فمن أين جاء؟ ومن أيّ نبع فاض؟ هذا ما حاول بعض الرواة والمؤرخين توضيحه. وروى صاحب الأغاني: «أن أول من غنى هذا الغناء سعيد بن مسجح... مولى بني نوفل مكيّ أسود من فحول المغنين وأكابرهم، وأول من صنع الغناء منهم. ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب ثم رحل إلى الشام وأخذ الألحان البيزنطية وألحان الروم وتعلّم الضرب.

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٣١.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ١٦٩.
(٣) Farmer, H, History of the Arabian Music, P.43.
(٤) Farmer, H, History of the Arabian Music, P.44.

ثم قدم إلى الحجاز، وقد أخذ محاسن تلك النغم وانتقى منها ما استحسنه من النبرات والنغم، وغنّى على هذا المذهب، فكان أول من أثبت ذلك ولحّنه، وتبعه الناس»[1].

وفي رواية أخرى: «أول من نقل الغناء الفارسي إلى الغناء العربي سعيد بن مسجح مولى بني مخزوم، وذلك أن معاوية بن أبي سفيان لمّا بنى دوره جعل لها بنّائين من الفرس أتى بهم من العراق. فكانوا يبنونها بالجص والآجر. وكان سعيد يأتيهم فيسمع من غنائهم على بنيانهم فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربي، ثم صاغ على نحو ذلك»[2].

وذكر في موضع آخر: «أن ابن محرز كان أبوه من سدنة الكعبة، أصله من الفرس وكان يسكن المدينة مرة ومكة مرة، فإذا أتى المدينة أقام فيها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب على عزة الميلاء. ثم يرجع إلى مكة فيقيم فيها ثلاثة أشهر. ثم يذهب إلى فارس فيتعلم ألحان الفرس، ثم صار إلى الشام فتعلم ألحان الروم، وأخذ غناءهم فأسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفريقين وأخذ محاسنها فمزج بعضها ببعض وألّف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب، فأتى بما لم يسمع مثله وكان يقال له «صنّاج العرب». وهو أول من غنى بزوج من الشعر وعمل ذلك بعده المغنّون اقتداءً به. وكان يقول: الأفراد لا تتم إلا بالألحان، وذكر أنه أول ما أخذ الغناء عن ابن مسجح»[3].

روى ابن رشيق: «قال إسحق الموصلي: هذا كان غناء العرب حتى جاءهم الله بالإسلام وفتحت العراق، وجلب الرقيق الغناء من فارس والروم فغنّوا الغناء بالفارسية والرومية بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير»[4].

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ٨٤.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ٨٤.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٥١.
(٤) العمدة، لابن رشيق، ج ٢، ص ٢٤١.

وذكر الأصبهاني نقلاً عن معبد المغني: «أن عزة الميلاء كانت تغني أغاني القيان من القدائم مثل سيرين وخولة والرباب وسلمى»[1].

على أنه من الصعب جدًّا أن نركن إلى هذه الروايات التي جعل المؤرخون منها حادثة واحدة أصلاً للغناء العربي، ومهما يكن من أمر فإن الذي أراه أن الغناء تطور خلال العصور التي سبقت الإسلام ولكنه لم يصل إلى تلك الدرجة من الرقيّ التي بلغ بها إبان العصر الأموي إلا بعد اتصال العرب الوثيق بالأعاجم، واستجلابهم الآلاف من الرقيق الذين كانوا على جانب عظيم من الحضارة، فتفننوا في ضروب الغناء وبرع منهم مغنّون ومغنيات أمثال الغريض ومعمر وعزة الميلاء وغيرهم[2].

«د» **الحجاز مهد الغناء**: بات الحجاز في ذلك العهد مهد الغناء وملجأ للمغنين يَفِدون إليه من كل صوب. وكان خلفاء بني أمية يستجلبونهم من مكة والمدينة، فهو ذا الوليد بن يزيد يحضر أكبر عدد من المغنين وأشهرهم. ذكر ابن عبد ربه أن هذا الخليفة الأموي أرسل إلى المدينة فحملوا له المغنين، ومنهم أشعب، فكان يرقص له ويغني[3]. كذلك كتب إلى عامله بالمدينة فأمره بالشخوص إليه بعطرد المغنّي[4]. ومن المغنين الذين أحضرهم من الحجاز ابن عائشة ومعبد[5]. وقد مهد السبيل لهذا الغناء وذيوعه ورقيّه إجازة الفقهاء الحجازيين له بعكس فقهاء العراق الذين حرّموه وأباحوا الشراب فقال في الأندلس شاعرٌ في القرن الثالث:

دينُنـا فـي السمـاع ديـنٌ مَـدِينـِ ـيٌّ وفي شربنا الشرابُ عراقي[6]

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٣.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٣.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ١٨٥.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ٩٨.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١١٥.
(٦) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، للثعالبي، ج ١، ص ٣٦٣.

وكان أهل العراق يعيبون على أهل الحجاز تسامحهم في السماع، وأولئك يعيّرونهم تساهلهم في الشراب. روى ابن عبد ربه أن الزهري قال: «قال لي أبو يوسف القاضي: ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني، ما منكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها! قال: فغضبت وقلت: قاتلكم الله يا أهل العراق ما أوضح جهلكم، وأبعد من السداد رأيكم! متى رأيت أحداً سمع الغناء فظهر منه ما يظهر من سفهائكم، هؤلاء الذين يشربون المسكر فيترك أحدهم صلاته أو يطلق امرأته ويقذف المحصنة من جاراته ويكفر بربه، فأين هذا من هذا؟!»[1].

ولقد انتظم الغناء في الحجاز فأُقيمت فيه حفلات وعُقدت له اجتماعات وخُصصت له أندية وساهمت النساء بقسط وافر في هذه الحفلات. «فقد روي عن الشريفة سكينة بنت الحسين أنها أرادت تكريم المغنّي حنين لمّا وفد إلى المدينة فدعته إلى منزلها وأذنت للناس إذناً عامّاً فلم يُرَ يوم كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ»[2].

وكانت الحفلات التي تقيمها المغنية جميلة في غاية الظرف والذوق والانتظام، وقد وصف لنا أبو الفرج بأسلوبه الشيق حفلة أقامتها هذه المغنية ودعت إليها رهطاً من مغنّي الحجاز «فقام كل واحد منهم وغنّى بدوره فقرظته جميلة، ثم حان وقت الغداء فمُدّ الخوان وأتتهم من الأطعمة ما لذ ومن الفاكهة ما طاب، ثم ما زالوا يومهم كذلك بأطيب مجلس وأحسن حديث حتى جنّهم الليل فدعت بالشراب، ثم دعت لكل واحد منهم بعود وأخذت هي عوداً فضربت ثم أمرتهم أن يضربوا فضربوا معها بضرب واحد ثم غنّت بشعر لامرىء القيس». قال الأصبهاني: «فما سمع السامعون بشيء أحسن من ذلك، ثم قالت: تغنّوا جميعاً بلحن واحد. فغنّوها هذا الشعر والصوت بعينه كما غنته وعلم القوم ما أرادت بهذا الشعر فقال ابن عائشة: جعلتُ فداك، نرجو أن يدوم مجلسنا ويؤثر

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ٢٣٣.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٢٧.

أصحابنا المقام في المدينة فنواسيهم من كل ما نملكه، قال أبو عباد: وكيف بذلك؟ ثم باتوا بأنعم ليلة وأحسنها. قال إسحٰق: قال أبي: قال لي يونس: قال أبو عباد: لا أعرف يوماً واحداً منذ عقلت، ولا ليلة عند خليفة ولا غيره مثل ذلك اليوم. ولا أحسبه يكون بعد. قال يونس: ولا أدركنا نحن مثل ذلك اليوم. قال إسحٰق: ولا أنا، ولا أحسب ذلك اليوم يكون بعد»[1].

وكانت جميلة تقيم الحفلات الغنائية فيحضرها السَّري عبد الله بن جعفر وابن أبي عتيق والشاعر عمر بن أبي ربيعة والأحوص فإذا انتهت من غنائها صفّق القوم بأيديهم وفحصوا بأرجلهم وحرّكوا رؤوسهم وقالوا: نحن فداؤك من السوء ووقاؤك من المكروه ما أحسن ما غنَّيْتِ وأجمل ما قلت[2]. وكانت في بعض الحفلات تلبس لباساً خاصّاً وتلبس جواريها ومن كان عندها من المغنين كذلك[3].

وكان من جرّاء إقبال الناس على الغناء أن اشتدت المنافسة بين المغنين، فقد روى الأصبهاني أن ابن صفوان سبق بمكة بين المغنين جائزة[4]، وأن سليمان بن عبد الملك لمّا حجّ سبق بين المغنين ببدرة فجاء ابن سريج وغناه:

سرى همّي وهمّ المرء يسري

فأمر سليمان بدفع البدرة إليه[5].

وهاجت الخصومة الموسيقية بين مركزي الغناء بذلك العهد (بين مكة والمدينة) قيل: فصنع معبد وهو مغنّي المدينة ألحاناً سبعة افتخر بها حتى إنه فضلها على المداين التي افتتحها قتيبة في حروبه ببلاد فارس، فاغتاظ المكيّون

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٣٤.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٤٤.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٢١.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ١٢٦.

ولحقتهم غيرة شديدة، وعرضوا ألحان مغنِّيهم فانتخبوا من غناء ابن سريج سبعة ألحان وفاضلوها مع ألحان معبد السبعة. ثم خايروا أهل المدينة فانتصفوا منهم[١].

ولقد كانت المغنية جميلة تخرّج عليها التلميذات والتلاميذ (كما يتخرج اليوم من الكونسرفتوار) في الغناء، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبّابة وسلاّمة. وكان معبد يقول: أصل الغناء جميلة، وفرعه نحن، فلولا جميلة لم نكن نحن مغنّين[٢].

ولقد ضاهت جميلة في المدينة مغنية أخرى، قال الأصبهاني: «هي أقدم من غنى الغناء الموقّع من النساء في الحجاز[٣] وهي عزة الميلاء التي فتنت فتيان المدينة[٤]. وغنّت أمام عمر بن أبي ربيعة يوماً فشقّ ثيابه[٥]، وكانت إذا جلست جلوساً عامّاً فكأن الطير على رؤوس أهل مجلسها»[٦].

وكان لهؤلاء القيان قيمة لا يستهان بها، فقد فَتَنَّ شباب هذا العصر. وملكن عليهم قلوبهم وعقولهم وذكر الأصبهاني «أن جميلة المغنية حجّت فما بقي مغنٍّ إلا رافقها ولا بقيت مغنية إلا وصحبتها، فمن الرجال: طويس والدلال ومعبد ومالك وابن عائشة، ومن النساء القيان: عزة الميلاء وحبّابة وسلاّمة وعقيلة وسعيدة والزرقاء، ومن غير المغنين والأشراف عدد وفير، وتمادى الناس في اللباس العجيب الظريف وكذلك في الهوادج والقباب. فقيل: إن أهل المدينة ما رأوا مثل ذلك الجمع سفراً طيباً وحسناً وملاحة. ولمّا وصلت إلى مكة خرج

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ١٤٣.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٢٥.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٣
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٩
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٤.
(٦) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٤.

الناس إلى استقبالها بينهم الأشراف والشعراء وأبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعهم وحسن هيئتهم»[١].

كذلك روى أبو الفرج الأصبهاني: «أن عبد الله بن جعفر وابن أبي عتيق كانا من المعجبين بعزة الميلاء، وقد اتفق أن كانا عندها مرة فدخل عليها رسول والي المدينة يأمرها أن تكفّ عن الغناء لأنها أفسدت فتيان المدينة، فتوسّط عبد الله بن جعفر وابن أبي عتيق في الأمر وطردوا الرسول وقالا لها: «لا يهولنّكِ ما سمعت، هاتي فغنِّـنا»[٢].

هذا وقد كان ينشد الغناء في مناسبات عدة كحفلات الأعراس وحفلات الختان وفي المتنزهات كالعقيق وغيره، وفي مواسم الحج، وعلى الطريق بين مكة والمدينة.

ذكر صاحب الأغاني أن الدلال المغني غنّى يوم زفاف ابنة عبد الله بن جعفر إلى الحجاج فطرب والد العروس ودمعت عيناه. وكانت الهوادج والرواحل قد هُيئت وركبت ابنة عبد الله هي وجواريها والمشيّعون فيها[٣]. روى ابن عبد ربه أن عطاء بن أبي رباح احتفل بختان ولده فأحضر المغني ابن سريج[٤].

وروى أحد الأعراب ما شاهده في حاضر المسلمين من الأعاجيب من يوم عرس فقال: «رأيت أموراً عجيبة منها أني دخلت قرية بكر عاصم الهلالي وإذا بدورٍ متباينة، وإذا بخصاص بيض بعضها فوق بعض، وإذا بأناس كثير مقبلون ومدبرون وعليهم ثياب حكوا بها أنواع الزهر. فقلت لنفسي: هذا أحد العيدين الفطر أو الأضحى، ثم رجع إليّ ما غرب عن عقلي فقلت: خرجت من أهلي في

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٣٥.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٩ ـ ٢٠.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ٢٩٣.
(٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٣٢.

عقب صفر (أي شهر صفر) وقد مضى العيدان قبل ذلك، فبينما أنا واقف أتعجب إذ أتاني رجل فأخذني بيدي فأدخلني بيتاً قد نجد وفي وجهه فرش ممهدة وعليها شاب ينال فرع شعره كتفيه والناس حوله سماطان فقلت في نفسي: هذا هو الأمير الذي يحكي لنا جلوسه وجلوس الناس حوله، فقلت وأنا ماثل بين يديه: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله. قال: فجذب رجل بيدي، وقال: ليس هذا بالأمير، اجلس. قلت: فمن هو؟ قال: عروس، قلت: وا ثكل أماه؟» ثم بعد أن يروي شيئاً عن المآكل وكل ذلك بمزيد من العجب يحكي ما شاهد في الغناء فيقول: «وكان معنا في البيت شاب لا آبه له، فعلت الأصوات بالثناء عليه والدعاء، فجاء بخشبة عيناها في صدرها فيها خيوط أربعة، فاستخرج من خلالها عوداً فوضعه خلف أذنه ثم عرك آذانها وحرّكها بخشبة في يده فنطقت وربِّ الكعبة، وإذا هي أحسن قينة رأيتها قط! وغنى عليها فأطربني حتى استخفَّني من مجلسي فوثبت بين يديه، وقلت: بأبي أنت وأمي ما هذه الدابة؟ فلست أعرفها للأعراب وما أراها خلقت إلا قريباً؟ فقال: هذا البَرْبَطُ. فقلت: بأبي أنت وأمي فما هذا الخيط الأسفل؟ قال: الزير. قلت: فالذي يليه؟ قال: المثنى. قلت: فالثالث؟ قال: المثلث. قلت: فالأعلى؟ قال: البَمُّ. قلت: آمنت بالله أولاً، وبك ثانياً وبالبربط ثالثاً، وبالبم رابعاً»[1].

وكانت حلقات الغناء تعقد كما قلت: في العقيق متنزه أهل المدينة فيفد إليها الشعراء والمغنّون من كل فج يتناشدون الغناء ويلهون ويسمرون. وكثيراً ما كانوا يذهبون ومعهم آلات الغناء بصحبة الشعراء كما كان يفعل عمر بن أبي ربيعة وابن سريج، فيعترضون طريق الحجاج ويغنّونهم فيطربون لهم. وكانت تلك فرصة يغتنمها المغنون ليتقربوا من الخلفاء الأمويين إذا جاءوا الحجاز حاجّين ويسمعونهم الغناء فيستدرون منهم الأموال والأعطيات. قيل: إن الأبجر المغني جلس يوماً من أيام الحج يغني، فسمع صوته الوليد بن يزيد وكان قد خرج

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ٣٦.

حاجّاً، فأرسل إليه فرساً أدهم بسرجه ولجامه وأربعمائة دينار وتختاً وثياباً ووشياً[1].

روى الأصبهاني أن هشام بن عبد الملك حج فوقف له حنين الحيري ومعه عوده وزامر له، فلمّا مر به هشام عرض له، فقال: من هذا؟ قيل له: حُنَين. فأمر به فحمل في محمل على جمل وعديله زامره وسِير به أمامه، ثم غنّى، فأمر له هشام بمائتي دينار وللزامر مائة[2].

ولقد كان من الطبيعي أن يبعث الغناء في مواسم الحج شتى العواطف في نفوس الحجاج، والغريب عن وطنه يحن إليه أبداً، والبعيد عن أهله وذويه يتشوق إليهم ويتذكرهم. روت امرأة أن ابن سريج غنى على أخشب مِنًى غداة النفر:

جدِّدي الوصلَ يا قريبَ وجودي   لِمُحِبٍّ فِراقُهُ قدْ ألَمّا
ليسَ بينَ الحياةِ والموتِ إلاّ   أن يردّوا جمالهم فتزمّا

قالت: فما تشاء أن تسمع من خباء ولا مضرب حنيناً ولا أنيناً إلا وسمعته[3].

فلا عجب إذاً بعد كل ما ذكرت عن رقيّ الغناء وانتشاره أن يُقبل الخلفاء عليه لا سيما أنه كان باستطاعتهم استحضار المغنّين وإغداق الأعطيات عليهم فيتشجع هؤلاء ويرسلون من ألحانهم الشجيّة ما يروق للخلفاء، فيزيد هؤلاء في إنعامهم، وكلما أكثروا منها زاد المغنّون في استرسالهم وكيف ولا وقد قيل: (اللُّهي تفتح اللها). وكانوا إذا فاتهم الاستماع إليهم في الشام لم يفتهم أن ينعموا بسماعهم في الحجاز وهي مقر الغناء وكعبة المغنّين.

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ٣٦.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١١٥ ـ ١١٦.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٢١.

«هـ» **الخلفاء والغناء**: رغب خلفاء بني أمية في الغناء وشجّعوا المغنين، هذا إذا استثنينا معاوية، فإنه كان على ما يظهر متعصباً لفكرة السماع. ويرى Caussin de Perceval أن الخليفة الأموي الأول كان لا يتذوق الموسيقى ولا يفهمها[١].

وكان معاوية يخشى على يزيد صحبة المغنّين، وابنه يهابه ويتحيّن الفرص لإدخالهم إلى القصر تحت جناح الظلمة[٢].

لكن ذلك لم يمنع معاوية في بعض الأحيان من التسامح في السماع. ذكروا أنه لما قدم عبد اللّه بن جعفر وافداً على معاوية أنزله في داره. فسمعت امرأة الخليفة فاختة غناءً عند ابن جعفر فشكت ذلك إلى زوجها، فجاء وحضر وسمع شيئاً حرّكه وأطربه وقال: إني والله لأسمع شيئاً تكاد الجبال تخرّ له، وما أظنه إلا ما تلقيه الجن[٣].

قيل: وأصيب معاوية بالأرق في إحدى الليالي فتوجه إلى مجلس عبد اللّه بن جعفر، فلم يجد أحداً في المجلس، فأخذ يسأل عن أصحابه. ولمّا وصل إلى مكان المغني أجابه: «مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين». فقال له معاوية: «إن أذني عليلة» ولمّا حضر المغني قال له معاوية: «داوِ أذني من علتها»[٤].

قيل: وشاهد معاوية جارية في حجرها عود عند ابن أبي جعفر ولمّا سأله: ما هذا يا ابن جعفر؟ أجابه: هذه جارية أرويها رقيق الشعر فتزيده حسناً بحسن نغمتها. قال: فلتقل. فحرّكت عودها وغنت[٥].

---

(١) معاوية، للأب لامنس، ص ٢٩٠.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٨٨.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٣٧.
(٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٧، ص ١٧.
(٥) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٧، ص ٢٣٨.

وحكى لنا ابن عبد ربه أن معاوية استمع إلى يزيد ذات ليلة فسمع عنده غناءً أعجبه فلما أصبح قال: من كان مُلهيك البارحة؟ قال: سائب خاثر. قال معاوية: فأكثِرْ له من العطاء[١].

ومن الخلفاء الأمويين الذين كرهوا الغناء وأهله مروان بن الحكم، فقد روي عنه أنه نفى جميع المخنثين من المدينة حينما كان والياً عليها، وبينهم المغنين ومنهم طويس[٢].

وقد كان عمر بن عبد العزيز مشجّعاً للغناء محبّاً له زمن إمارته. حكي عنه أنه أول من وضع لحناً من الخلفاء[٣] لكنه حرّمه عندما أصبح خليفة، وظل يحنّ إليه من وقت إلى آخر. وروي أنه بلغه أن أحد القضاة في المدينة وكان يدمن على سماع قينة له فأراد عزله وأرسل في طلبه هو والمغنية، ولمّا مثلا بين يديه أشار القاضي إلى القينة بالغناء فلما فعلت طرب الخليفة لها وقال للقاضي: اذهب إلى وظيفتك[٤].

«و» **مجالس الغناء عند الخلفاء**: قلت فيما سبق: إن خلفاء بني أمية ـ إذا استثنينا قلائل منهم ـ شجّعوا الغناء وأقبلوا على سماعه وعقدوا له المجالس والحلقات. روى الجاحظ خبراً مفاده أن أكثر خلفاء بني أمية اتخذوا المغنين وشجّعوا الغناء وسأورده كما جاء في التاج:

«قلت لإسحٰق بن إبراهيم: هل كانت خلفاء بني أمية تظهر للندماء والمغنين؟ قال: أما معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان والوليد ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستارة. وهذه العادة اقتبسها الأمويون عن الفرس وكان لا يظهر لأحد من الندماء ما يفعله الخليفة إذا طرب للمغني والتذّه حتى

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٥٤.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٧١.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ١٤٩ ـ ١٥١.
(٤) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ٤٢٨.

يتقلب ويمشي ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد حيث لا يراه إلا خواص جواريه، إلا أنه كان إذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو رقص أو حركة تجاوز المقدار. قال صاحب الستارة: حسبك يا جارية كفّي! انتهي! قصري! ليوهم الندماء أن فاعل ذلك هو بعض الجواري.

وإنما الباقون من خلفاء بني أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجردوا ويحضروا عراةً بحضرة الندماء والمغنين، وعلى ذلك لم يكن أحد منهم في مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد في المجون والعبث بحضرة الندماء.

قلت: فعمر بن عبد العزيز؟ قال: ما طن في سمعه حرف غناء مذ أفضت إليه الخلافة إلى أن فارق الدنيا. فأما قبلها وهو أمير المدينة فكان يسمع الغناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجليل، وكان ربما صفّق بيديه، وربما تمرّغ على فراشه وضرب برجليه وطرب. فأما أن يخرج عن مقدار السرور إلى السخف فلا»[1].

علماً أنني شخصياً أشكّ في صحة هذه الرواية ولا سيما فيما يتعلق بمعاوية ومروان وعبد الملك وتجردهم حين سماعهم الغناء ورقصهم أمام الجواري. والمرجّح عندي أن معاوية أو مروان أو عبد الملك أو عمر بن عبد العزيز لم يقدموا على هذا التصرف المشين لا سيما وقد وردتنا الأخبار الموثوق بها[2] تفيد أن معاوية كان بعيداً كل البعد عن أن يستفزه الطرب أو أن تذهب بعقله الأنغام، أضف إلى ذلك أنني لم أقع على أي خبر من الكتب أو المراجع التي استندت إليها، سواء أكان أصحابها من الموالين لبني أمية أم من المعادين لهم، يفيد أن معاوية أو مروان أو عبد الملك أو عمر بن عبد العزيز أقدم أحدهم على الرقص أو التجرد بحضرة جواريهم إذا طربوا عند سماعهم المغنين. علماً أنه ليس من المستبعد أن ينطبق الذي ذكره الجاحظ على يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد

(١) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ٣١ ـ ٣٣.
(٢) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، المجلد ٢، ص ٢١٤.

وابنه يزيد إذ إن أخبار تهتك هؤلاء قد ملأت الكتب ولم يشهد لهم أحد بالعفة أو استنكر ذلك عليهم.

وسأورد على سبيل المثال وصف بعض مجالس الغناء عند هؤلاء الخلفاء ليقف القارىء على جليّة الأمر:

قال الأصبهاني:

«أرسل يزيد بن عبد الملك يطلب معبداً المغني فلما حضر غنّاه لحناً طرب الخليفة له فصاح: أحسنت والله، أعد فداك أبي وأمي. فأعاد فردّ عليه مثل قوله الأول، فأعاد ثم قال: أعد فداك أبي وأمي، فأعاد. فاستخفّه الطرب حتى وثب وقال لجواريه: افعلن كما أفعل، وجعل يدور في الدار ويدرن معه ويقول:

يا دارُ دوِّريني ... يا قَرْقَرُ أمسكيني
آليتِ منذُ حينِ ... حقاً لتصرميني
ولا تواصليني ... بالله فارحميني
لم تذكري يميني

قال: فلم يزل يدور كما يدور الصبيان حتى خرَّ مغشيّاً عليه. ووقعن فوقه ما يعقل ولا يعقلن، فابتدره الخدم وأقاموه وجواريه وحملوه»[1].

ولعمري أيّ مشهد أخزى من مشهد خليفة بيده زمام الأمور يدور أمام مغنٍّ صعلوك مع جواريه فيضطر خدمه والحاضرون أن يضحكوا منه ويهزأوا به.

وحدّث حماد الراوية قال: «دخلت على الوليد بن يزيد وهو بالنجداء فإذا هو سرير ممهد وعليه ثوبان أصفران: إزار ورداء بلون الزعفران، وعنده مالك بن أبي السمح ومعبد، فطلب مني أن أنشده فأنشدته، ثم قال لمالك غنّني:

ألا هلْ هاجَكَ الأظعا ... نُ إذْ جاوزن مطّلحا

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٦٨.

ففعل وطلب منه لحنين آخرين فغناهما، ثم أتاه الحاجب، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، الرجل الذي طَلَبْتَ بالباب. قال: أدخلوه، فدخل شاب لم أر أحسن منه وجهاً، فسقاه ثم قال غنّ:

وهْـــي إذ ذاك عليهـــا مئـــزرٌ   ولهـــا بيـــتُ جـوارٍ مــن لُعَــبْ

فغناه حتى طرب وكفر وألحد، وكان الغناء يعمل به عملاً ضلّ عنه من بعده. وقام إليه فقبّله، ثم نزع ثيابه وألقاها عليه وبقي مجرداً إلى أن أتوه بمثلها، ووهب له ألف دينار، وحمله على بغلة، وقال: اركبها وانصرف فقد تركتني على مثل المقلي من حرارة غنائك، فركبها وانصرف»[1].

ومما يحكى عن الوليد هذا أيضاً أنه قال يوماً: اشتقت إلى معبد، فوجّه البريد إلى المدينة، فأُتي بمعبد وأمر الوليد ببركة هيئت له فمُلئت خمراً وماءً، وأُتي بمعبد فأمر به وجلس والبركة بينهما، وبينهما ستر قد أُرخي، فقال له: غنني يا معبد:

لَهفي علـى فتيـةٍ ذلَّ الـزمـانُ لهـم   فمـا أصـابهـم إلا بمـا شـاءوا
مـا زال يعدو عليهـم ريبُ دهرهـم   حتـى تفـانـوا وريـبُ الـدّهـر عـدّاء
أبكـى فـراقُهـم عينـي وأرّقهـا   إن التّـفـرق لـلأحبـاب بكّـاء

فغنّاه معبد فرفع الوليد الستر ونزع ملاءة طيبة كانت عليه وقذف بنفسه في البركة فنهل منها ثم أُتي بأثواب غيرها وتلقّوه بالمجامر والطيب، ثم قال غنّني:

يـا ربعُ مـا لـك لا تجيبُ متيّمـاً   قـد عـاجَ نحـوَك زائـراً أو سلّمـا
جـادتـك كـلُّ سحـابـةٍ هطّـالـةٍ   حتـى تُـرَى عـن زهـرة مُتَبَسِّمـا

فغناه فدعا له بخمسة عشر دينار نصبها بين يديه. ثم قال: انصرف إلى أهلك واكتم ما رأيت[2].

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ٢١٠ ـ ٢٢٦، طبعة دار الكتب.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٥٢، طبعة دار الكتب.

ومما يروى عن يزيد بن الوليد أنه لما استخلف كتب إلى عامله بالمدينة يأمره بالشخوص إليه بعطّرد المغني. قال عطّرد المغني: «فأُدخلت عليه وهو جالس في قصره على شفير بركة مرصصةٍ مملوءة خمراً ليست بالكبيرة، ولكنها يدور الرجل فيها سباحة، فوالله ما تركني أسلّم عليه حتى قال: أعطّرد! قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: كنت إليك مشتاقاً يا أبا هارون فغنّني:

هـيَ الحمـولُ بجـانـبِ الغـزلِ   إذ لا يـلائِـمُ شكلُهـا شكلـي

قال: فغنيته إياه. فوالله ما أتممته حتى شق حلّة وشيٍ كانت عليه لا أدري كم قيمتها، فتجرد منها ورمى نفسه بالبركة، فنهل منها حتى تبيَّنت أنها قد نقصت نقصاناً بيّناً وأُخرج منها وهو كالميت سكراً فأُضجع وغُطّي، فأخذتُ الحلة وانصرفت.

ولمّا كان اليوم الثاني أرسل بطلبي فغنيته:

أيـذهَـبُ عمـري هكـذا لـم أنـلْ بهـا   مجالس تشْفي قرحَ قلبي منَ الوجدِ

فشق حلة وشي عليه كانت تلمع بالذهب التماعاً ثم ألقى نفسه في البركة فنهل منها أكثر من اليوم الفائت فأخرج كالميت سكراً وأُلقي وغُطّيَ فنام، فأخذت الحلة وانصرفت»[1].

هذا وقد كان يحضر مثل هذه المجالس الغنائية المضحكون والمُجّان، ويظهر أنهم كانوا من توابع اللهو بل من متمماته. من هؤلاء أشعب، قيل: إن الوليد بن يزيد أرسل إليه فجاء به فألبسه سراويل من جلد قرد له ذنب وقال له: ارقص وغنِّ[2].

هذا وإذا أردت أن أذكر كل ما ورد عن مجالس الغناء عند الأمويين، ملأت مئات الصفحات، وهذه الناحية من الموضوع ـ مجالس الغناء ـ يصحّ أن

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ٣٠٧، طبعة دار الكتب.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ١٣٣.

تعالج كبحث خاصّ مطوّل. ومهما يكن من أمر صحة هذه الروايات ـ ولعله مبالغ بها كثيراً ـ فإنها لا بد، ولحدٍّ ما، تبرز لنا صورة للغناء عند بعض الخلفاء الأمويين في ذلك العهد وشدة إكرامهم للمغنين.

ويظهر أن هذه البرك المملوءة خمراً والتي ذكرها أبو الفرج وأمعن، بل بالغ، في وصفها، كانت من متممات الطرب، لا بل من دواعي حسن الاستماع إلى الغناء، وسوف آتي إلى علاقتها به عند البحث في مجالس الشراب.

على أنه لا بد لي هنا من الإشارة إلى أن هذه المجالس وانغماس بعض الخلفاء الأمويين بها، وخاصة في أواخر عهدهم، ربما كانت أحد العوامل التي أدّت إلى تضعضع الصرح الأموي أو بالأحرى إلى تهديمه، فقد أخبرَنا الرواة أنه لمّا ظهرت المسودة في خراسان زمن الوليد الثاني كتب إليه نصر بن سيار يستمدّه، فتشاغل عنه، فكتب إليه كتاباً وفي أسفله:

فقلتُ من التعجُّب ليتَ شِعري   أأيقاظٌ أميةُ أم نيامُ

فأجابه الوليد: قد أقطعتك خراسان فاعمل لنفسك، فإني مشغول عنك بابن سريج ومعبد والغريض[1].

وجدير بخليفةٍ هذا أمره أن تكون نهايته فاجعة ونهاية دولته مأساة.

«ز» **مجالس الغناء عند الخاصة**: كان الإقبال على الغناء في العهد الأموي عامّاً شاملاً، ولقد ساهم الأشراف بقسط وافر بهذا النوع من اللهو وعقدوا في دورهم مجالس للغناء وقرّبوا المغنّين وشجّعوهم، ولم يبذل أحد قط من الأشراف ما بذله السري عبد اللّه بن جعفر في هذا المضمار. فقد كان يجتمع في قصره بالمدينة أكبر عدد من المغنين[2]. وذكر صاحب الأغاني أنه كان يستصحب

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ٥٦.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ١٩٨.

بعضهم معه في سفراته[1]. وكان من رواد مجلسه المغنية جميلة. قيل: إن هذه دعته مرة وكانت قد أعدّت لكل جارية عوداً وأمرتهن بالجلوس على كراسٍ صغار فطربن وغنّتهن وغنّين معها، فلما طربن جميعاً قال عبد اللّه: ما ظننت أن مثل هذا يكون، وإنه لما يفتن القلوب[2].

وقيل: «إن الغريض مغني ابن أبي ربيعة أنشد الحارث بن خالد المخزومي والي مكة لعبد الملك بن مروان:

عفتِ الديار فما بها أهلُ   حُزّانُها ودِماثُها السهلُ

فقال له الحارث: يا غريض لا لوم في حبك ولا عذر في هواك، ولا لذة لمن يروح قلبه بك. يا غريض! لو لم يكن لي في ولايتي مكة حظ إلا أنت لكان حظّاً كافياً. يا غريض إنما الدنيا زينة فأزين الزينة ما فرّح النفس، ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء»[3].

«وحكي أنه لما ولي أبان بن عثمان بن عفان المدينة لمعاوية جاءه طويس ووقف بين يديه وغناه فأطربه فصفق أبان بيديه، ثم قام من مجلسه فاحتضنه وقبّله بين عينيه وقال: يلومونني على طويس»[4].

هذا ولقد ضاهت مجالس الغناء عند الأشراف تلك التي كانت تعقد عند الخلفاء في الأبهة والغنى. ذكر الأصبهاني «أنه دخل معاوية مرة على عبد اللّه بن جعفر وعزة الميلاء بين يديه كالشمس الساطعة في كوار البيت يضيء، بها تغنيه على عودها:

بَتلَتْ فؤادَكَ في الظلامِ خريدةٌ   تَشْفي الضجيعَ ببارِدٍ بسّامِ

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١٠٧.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١٠٧.
(٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٤١.

وبين يديه عسل فقال: ما هذا يا أبا جعفر؟ قال: أقسمت عليك يا أمير المؤمنين لتشربنَّ منه! فإذا عسل مجدوح (مخلوط) بمسك وكافور. فقال: هذا طيّب فما هذا الغناء؟ قال: شعر حسان بن ثابت. قال: فما تحريكُك رأسك؟ قال: أريحية أجدها إذا سمعت الغناء»(١).

وقد كان يجري في هذه المجالس ما يثير الضحك ويبعث في النفس السخرية. روى أبو الفرج عن أحد أغنياء الشام أنه دعا معبداً المغني إلى داره فأكرمه وجعل معبد يغنيه فلا يحفل له، فنادى غلاماً، فقال: شيخنا. شيخنا يا غلام! فأُتي بشيخ فلما رآه أحسن إليه فأخذ الشيخ العود ثم اندفع يغني:

سِلَّوْرُ فـي القِـدرِ وَيْلـي عَلُـوهْ ... جـاء القـط أكلَـه وَيْلـي عَلُـوهْ

فجعل صاحب المنزل يصفق ويضرب برجليه طرباً وسروراً ثم غنّاه:

وتـرمينـي حبيبـةُ بـالـدُّراقِـنْ ... وتَحْسَبُنـي حبيبـةُ لا أراهـا

فكاد الشيخ أن يخرج من جلده طرباً. فانصرف معبد وهو يقول: ما رأيت قط غناءً أضيع ولا شيخاً أجهل(٢).

«ح» **الشعراء والغناء**: لا يخفى أن بين الشعر والغناء صلة وثيقة وإذا كان الغناء في العصر الأموي قد أثّر في حياة شتى طبقات الناس فحريٌّ به أن يكون أثره بحياة الشعراء أبلغ وأشدّ وقعاً. ويظهر أن العلاقة كانت على أشدّها بين الشعراء والمغنّين في ذلك العهد، وكنت إذا فتّشت عن عمر بن أبي ربيعة وجدته بصحبة ابن سريج، وإذا طلبت الغريض ألفيته لا محالة عند عمر بن أبي ربيعة، وهكذا. وأنت إذا تحرّيت أخبار الشعراء المبرزين في الحجاز أمثال عمر والحارث بن خالد المخزومي، والأحوص، والعرجي، وجدت أكثرها مع المغنين أو المغنيات. وكان المغنون ـ ولا زالوا ـ بحاجة إلى شعرٍ جميل يُنظم لهم لأن ذلك يزيد من قيمة الغناء ويُكسبه روعة، فنرى مثلاً ابن سريج والغريض

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ٢١٢ ـ ٢١٣، طبعة دار الكتب.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٢٨.

يتحرون أشعار عمر الغرامية فيضعون لها الألحان الشجية، ولا يمضي زمن قليل حتى تنتشر هذه القصائد وتذيع وتفتن الناس وخاصة قريش حتى إنه قيل: إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه بشعر ابن أبي ربيعة ولحن ابن سريج فإنك ترقصه(١).

ومن أظرف ما حدث لعمر بن أبي ربيعة في سماعه للغناء أنه اجتمع هو والأحوص عند المغنية عقيلة فشربوا وغنت لهم لحناً من شعر عمر وما انتهت حتى صاح عمر: ويلاه ويلاه، ثلاثاً، ثم عمد إلى جيب قميصه فشقّه إلى أسفله، فصار قباءً، ثم آب إليه عقله فندم واعتذر(٢).

ومما يروى عن جرير الشاعر أنه وفد مرة إلى المدينة فأنشده أحد مغنيها بعضاً من شعره. وأُعجب بذلك فقال له أحدهم: فكيف لو سمعت واضع هذا الغناء؟ قال: وإن له واضعاً غير هذا؟ قالوا: نعم، ابن سريج المكي، فأخذ على نفسه ألا يفارق الحجاز حتى يسمعه، وسار يطلبه في مكة فزاد إعجابه بالغناء وقال: «يا أهل مكة ما أُعطيتم، والله لو أن نازعاً نزع إليكم ليقيم بين ظهرانيكم فيسمع هذا صباحاً ومساءً لكان أعظم الناس حظّاً ونصيباً فكيف ومع هذا بيت الله الحرام ووجوهكم الحسان ورقة ألسنتكم وحسن شارتكم وكثرة فوائدكم»(٣)؟

قيل: ونزل الفرزدق على الأحوص حين قدم إلى المدينة فقال الأحوص: ما تشتهي؟ قال: شعراً وطلاء وغناء، قال: ذلك لك، ثم مضى إلى قينة بالمدينة فغنته:

ألا حـيِّ الـدِّيـارَ بسعـدَ إنِّـي ... أُحِـبُّ لحـبِّ فـاطمـة الـديـارا
إذا مـا حـلَّ أهلُـكِ يـا سُليمـى ... بـدارة صلصـلٍ شحطـوا مـزارا
أرادَ الظـاعنـون ليحـزِنـونـي ... فهاجـوا صَدْعَ قلبـي فـاستطـارا(٤)

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١١٢.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٣٤.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١١٧.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ٤١.

«ط» الفقهاء والغناء: ذكرت فيما سبق أن فقهاء الحجاز أجازوا الغناء ولم يروا به بأساً. روى ابن عبد ربه: «أن ابن جريج سُئل عن الغناء، فقال: لا بأس، به شهدت عطاء بن أبي رباح في ختان ولده وعنده ابن سريج المغني فكان إذا غنى لم يقل له اسكت، وإذا سكت لم يقل له غن، وإذا ألحن ردّ عليه»[1].

وكان أبو السائب المخزومي يصوم الدهر ومع ذلك كان أرقّ خلق الله وأشدّهم غزلاً[2]. وروى عبد الرحمٰن بن أبي عمار أحد فقهاء مكة، وكان يلقّب بالقس لعبادته، أنه سمع غناء سلاّمة فكاد يفتن[3].

وكان ابن أبي عتيق وهو من أهل الفضل والعفاف والصلاح، مغرماً في الغناء مولعاً بالمغنين[4]، قيل: «إنه رأى مرة حلق ابن عائشة مخدشاً فقال له: من فعل هذا بك؟ قال: فلان. فمضى فنزع ثيابه وجلس للرجل على بابه، فلما خرج أخذ بمنكبيه وجعل يضربه ضرباً مبرحاً. والرجل يقول له: ما لكَ تضربني، أيُّ شيء صنعت، وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ثم خلاّه. وأقبل على من حضر فقال: هذا أراد أن يكسر مزامير داوود: شد على ابن عائشة فخنقه وخدش حلقه»[5].

وكان الغناء يعمل في نفوس البعض منهم عملاً ربما أقدموا من جرّائه على حركاتٍ صبيانية، وقد وصف لنا المسعودي مجلس غناء عند أحد قضاة المدينة، وما جرى لهذا القاضي عند سماعه جارية له تغني قال: «ذُكر إلى رجل من أهل العراق جارية كانت عند أحد قضاة المدينة فجاء يطلبها. فقال له القاضي: ما رغبتك بها؟ قال: إنها تجيد الغناء، قال القاضي: ما علمت بهذا، فألحّ عليه الفتى في عرضها، فعرضت بحضرة مولاها القاضي فقال لها: هات فتغنّت:

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٣٢.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ٣٠.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ٦ ـ ٧.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ١٠.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ٢٠٤، طبعة دار الكتب.

إلى خالدٍ حتى أنخنَ بخالدٍ   فَنِعْمَ الفتى يُرجى ونِعمَ المؤملُ

ففرح القاضي بجاريته، وسرّ بغنائها وغشيه من الطرب أمر عظيم حتى أقعدها إلى جانبه وقال: هات بأبي أنت بيتاً فتغنّت:

أروحُ إلى القصّاص كلَّ عشيةٍ   أُرَجّي ثوابَ الله في عدد الخطا

فزاد الطرب على القاضي، ولم يدر ما يصنع فأخذ نعليه فعلقهما في أذنيه، وجثا على ركبتيه وجعل يأخذ بطرف أذنيه والنعل معلقة بها وهو يقول: أهدوني إلى البيت الحرام، فإني بدنة، حتى أدمى أذنه، فلما أمسكتْ أقبل على الفتى فقال له: يا حبيبي انصرف فقد كنا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول فنحن الآن فيها أرغب. فانصرف الفتى وبلغ ذلك إلى عمر بن عبد العزيز فقال: قاتله الله لقد استرقّه الطرب وأمر بصرفه من عمله، فلما صرف قال: نساؤه طوالق، لو سمعها عمر لقال: اركبوني فإني مطية»[1].

«ي» عامة الناس والغناء: لهج عامة الناس وخاصة في الحجاز بالغناء وأقبل عليه كبيرهم وصغيرهم وكانوا حيثما سمعوا غناءً وقفوا للاستماع، وعطّلوا أشغالهم، وهناك قصة رواها الأصبهاني تدل على أثر الغناء في نفوس العامة أُوردها كما جاءت:

«قال معبد: بعث إليَّ بعض أمراء الحجاز أن أشخص إلى مكة فشخصت قال: فتقدمت غلامي في بعض تلك الأيام واشتدّ عليّ الحر والعطش فانتهيت إلى خباء فيه أسود، وإذا حباب ماء قد بردت فملت إليه وقلت: يا هذا اسقني من هذا الماء. فقال: لا. فقلت: فأذن لي في الكن ساعة. قال: لا. فأنخت ناقتي ولجأت إلى ظلها فاستترت به وقلت: لعلّي إذا حرّكت لساني يبلّ ريقي فيخفف عني بعض ما أجد من العطش، فترنمت بصوتي:

القصرُ والنَّخلُ فالجماءُ بينهما

(١) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ٤٣.

فلمّا سمعني الأسود ما شعرت إلا وقد احتملني حتى أدخلني خباءه وقال: بأبي أنت وأمي، هل لك بهذا الماء البارد؟ فقلت: قد منعتني أقل من ذلك. قال: فسقاني حتى رويت وجاء الغلام، فأقمت عنده حتى الرواح، فلما أردت الرحلة قال: بأبي أنت وأمي، الحر شديد ولا آمن عليك مثل الذي أصابك. فأذن لي أن أحمل معك قربة من ماء على عنقي وأسعى بها معك. فكلما عطشت سقيتُك صحناً وغنيتني صوتاً. قال: قلت: ذلك لك، فوالله ما فارقني يسقيني وأغنيه حتى بلغت المنزل»[1].

وذكر صاحب الأغاني أنه كان لدى عبد الله بن جعفر شيخ من أصحابه وكانت جارية تغني:

لمــن ربــعٌ بــذاتِ الجيــ ــشِ أمسـى دارسـاً خلقـاً

فبلغ به الطرب أشدّه وجعل يحرّك رأسه ويدور حتى وقع مغشيّاً عليه. ولقد استفز أحدهم الطرب وقد غنته حبّابة، فقام إلى شمعة فوضع لحيته عليها حتى احترقت وجعل يصيح: الحريق، الحريق[2].

فهذه الروايات وغيرها مما ورد في الأغاني تدلّنا على ذلك الأثر الذي كان يتركه الغناء في نفوس عامة الشعب وخاصة الحجازيين، فيبعثهم إلى احترام المغنين وتقديرهم حتى إن العبيد فهموا قدر الغناء وأجلّوا أهله كما رأينا.

٢ ـ الشــراب

الشراب ضرب من ضروب اللهو فلا عجب إذن أن يتكاتف هو والغناء ويمشيا جنباً إلى جنب. وفي الحقيقة فقد سار الشراب في هذا العهد إلى جانب الغناء فصرت تشهد مجلس الغناء يتخلله شراب وبالعكس.

«أ» تحريم القرآن الكريم للشراب: ولقد أكبّ شباب هذا العصر على الخمرة يتعاطونها دون أن يتقيدوا بشرائع الإسلام الذي نهى عنها بآيات أنزلت

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٤٦، طبعة دار الكتب.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٣١٦، طبعة دار الكتب.

تدريجياً، ففي سورة النحل في القرآن الكريم ورد: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. وهي تشير إلى إمكان اتخاذ الطّيب من ثمرات النخيل والأعناب. وجاء في سورة البقرة نص يشير إلى أن في الخمر إثماً ونفعاً ولكن الأول أكثر من الثاني: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[2].

وورد في سورة النساء تصريح يمنع المسلمين من أن يقربوا الصلاة بحالة السكر. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[3].

وأخيراً أنزلت سورة المائدة وفيها نص صريح وواضح يحرّم الخمرة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[4] صدق الله العظيم.

«ب» مجالس الشراب عند الخلفاء: يظهر أن بعض خلفاء بني أمية أدمنوا على الخمرة ورغبوا فيها غير آبهين بتحريم القرآن الكريم لها. وقد أخبرنا الجاحظ في كتابه التاج عن الخلفاء الذين تعاطوها قال: «وكان من ملوك الإسلام من يدمن على شربه (الخمر) فكان يزيد بن معاوية لا يمسي إلا سكراناً ولا يصبح إلا مخموراً»[5]، وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً. وكان

(١) سورة النحل، الآية ٦٧.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٩.
(٣) سورة النساء، الآية ٤٣.
(٤) سورة المائدة، الآيتان ٩٠ و٩١.
(٥) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

سليمان بن عبد الملك يشرب كل ثلاث ليال ليلة. ولم يشرب عمر بن عبد العزيز إلى أن فارق الحياة. ولا سمع غناء. وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشرب، فأما يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالين: بين سكر وخمار ولا يوجد أبداً إلا ومعه إحدى هاتين، وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت»[1]. ومهما يكن من أمر صحة هذه الرواية فإنها تدل إلى حدٍّ ما على تعاطي بعض الخلفاء الأمويين الخمرة ورغبتهم بها.

روى المسعودي أن يزيد بن معاوية كان صاحب منادمة على الشراب. قيل: جلس ذات يوم على شرابه وعن يمينه ابن زياد فأقبل على ساقيه وقال:

أسقني شربةً تَروي حشاشَتي   ثم مِلْ فاَسْقِ مثلها ابن زياد
صاحبَ السرِّ والأمانةِ عندي   ولتسديدِ مغنمي وجهادي[2]

هذا ويظهر أنه لم يبلغ أحد من الخلفاء الأمويين في إفراطه بالشراب ما بلغ بالوليد بن يزيد. روى صاحب الأغاني عن هذا الخليفة أنه كان يشرب من المساء حتى مطلع الفجر سبعين قدحاً[3]، وله شعر في الخمر يضاهي شعر أبي نواس، فمن قوله في شرابه:

أسقني يا يزيدُ بالقرقارهْ   قَدْ طَربنا وحنَّتِ الزمّارهْ
أسقني أسقني فإن ذنوبي   قد أحاطَتْ فما لها كفّارهْ

أما هشام بن عبد الملك فيزعم أبو الفرج أنه لم يكن يشرب ولا يسقي أحداً بحضرته مسكراً، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه[4]. قيل: إنه كتب مرة إلى الوليد يتوعده ويسأله عن دينه: أمسلم أنت أم كافر؟ فأجاب:

(١) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥ ص ١٥٧.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ١٢.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٥، ص ٥٠.

يا أيّها السائلُ عن ديننا   نحنُ على دينِ أبي شاكرِ
نَشْرَبُها صِرْفاً وممزوجةً   بالسُّخْنِ أحياناً وبالفاترِ[1]

وروى أبو الفرج أن الوليد شوهد يوم وفاة مسلمة بن عبد الملك وهو نشوان يجرّ مطرف خز[2].

ويظهر أن نساء بعض الخلفاء كان لهن حظٌّ من الشراب. ذكر الأصبهاني أن أم حكيم زوجة هشام كانت منهومة بالشراب مدمنة عليه لا تكاد تفارقه، وكأسها التي كانت تشرب فيها مشهورة عند الناس وفيها يقول الوليد بن يزيد:

علّلاني بعاتِقاتِ الكُرومِ   أسقياني بكاس أم حكيمِ
إنها تَشْربُ المُدامة صِرْفاً   في إناءِ من الزجاجِ عظيمِ[3]

وكانت المجالس التي تعقد للشراب عامرة يسمع فيها رنين الكؤوس تتخللها أنغام العود ونقرات الدفوف. وكان ندماء الخلفاء في مثل هذه المجالس مواليهم وأقرباءهم، والذين تربطهم بهم عشق بنت الكرمة. على أنه من الصعب أن نركن إلى مثل هذه الروايات لأن أغلب واضعيها كانوا من المؤرخين أو الأدباء الذين عاشوا في العصر العباسي، فكانوا يمعنون في الطعن بخلفاء بني أمية ويدسّون على بعضهم من الشوائب تزلفاً لبني العباس وطمعاً في عطائهم.

«ج» مجالس الشراب عند الخاصة: أقبل الأشراف والولاة في ذلك العهد على الشراب. وكان عمّال بني أمية يشربون الخمرة ولا يرون بأساً في ذلك، ذكر صاحب العقد أن حارثة بن زيد كان مقدّماً عند زياد بن أبيه فقال له بعضهم: إن هذا قد غلب عليك وهو رجل مستهتر بالشراب، فلم يعرهم أذناً صاغية[4].

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ٤.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ٧.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٥، ص ٥.
(٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٤٠٣.

وقيل: دخل أمية بن عبد الله بن أسيد على عبد الملك بن مروان وفي وجهه أثر فقال: ما هذا؟ فقال أمية: قمت بالليل فأصاب الباب وجهي فقال عبد الملك:

رأتني صريعَ الخمرِ يوماً بسوقِها ... ولشاربيها المدمنين مصارعُ(1)

ومن الأشراف الذين تعاطوا الخمرة العباس بن عبد الله بن العباس فقد كان ممن اشتهر بالشراب ومنادمته الأخطل وفيه يقول هذا الشاعر:

ولقدْ غدوتُ على النِّجارِ بمنبجٍ ... هرَّت عواذِلُه هريرَ الأكلبِ
لَبّاسُ أرديةِ الملوكِ يروقُه ... مِن كلِّ مرتقبٍ عيونُ الربربِ(2)

وكانت مجالس الشراب عند الخاصة تُعقد بحضور المغنّين والشعراء، وكان بعضهم يشتطّ في شرابه فيخرج ثملاً حتى يُضيع باب بيته ويدخل على جيرانه كما حدث لابن هرمة الشاعر، فإنه خرج مرة وكان في مجلس أحد الأعيان فمرّ على جيرانه وهو شديد السكر يظنه منزله، فلما كان الغد عاتبوه على الحال التي رأوه عليها في الليلة الماضية، فقال لهم: أنا في طلب مثلها منذ دهر، أما سمعتم قولي:

أسألُ الله سكرةً قبلَ موتي ... وصياحَ الصبيانِ يا سكرانُ(3)

وحكي أن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كان يعقد عنده مجالس الشراب فيبعث إلى ابن سيحان فيشرب معه، وكان مروان بن الحكم حاقداً عليه فرصده مرة في المسجد وكان ابن سيحان يخرج في السحر من عند الوليد ثملاً، فلما خرج على هذه الحالة أخذه مروان فأشهد بعض الناس على سكره فضُرب وسُجن(4).

---

(1) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٤٠٢.
(2) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٤٠٧.
(3) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ١١٤.
(4) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ٨٢.

هذه الأخبار وسواها تدلنا على مبلغ إقبال الأشراف على الشراب ومبالغتهم في تعاطيه حتى في الأراضي المقدسة التي هبط فيها الوحي ونزل كلام الله.

«د» **الشعراء والشراب**: أدمن الشعراء على الخمرة وكان لتعاطيهم إياها أثر في أدب ذلك العصر. فازدهر الشعر ورقّت ألفاظه وعذبت معانيه. ومن الشعراء الذين تغنوا بالمدامة الأخطل في الشام وكان يدخل على عبد الملك ولحيته تنفض خمراً ويطلب من الخليفة أن يسقيه. وعبد الرحمٰن بن سيحان في الحجاز وكان ينادم الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان لأمه. قيل: «إنه دخل مرة على ابن عم له يقال له: الحارث بن سريع، فوجده يشرب نبيذ زبيب فجعل يعظه ويأمره بشرب الخمر وقال له: يا ابن سريع، إن كنت تشربه على أن نبيذ الزبيب حلال، فإنك أحمق. أو إن كنت تشربه على أنه حرام تستغفر الله منه وتنوي التوبة فاشرب أجوده فإن الوزر واحد ثم قال:

دع ابنَ سريعٍ شُرْبَ ما مات مرةً ... وخُذْها سُلافاً حيةً مزةَ الطعمِ
تَدَعْكَ على مُلْكِ ابنِ ساسانَ قادراً ... إذا حرّمت قرّاؤنا حلبَ الكرمِ(1)

وله أيضاً في الخمرة:

أصبحْ نديمك من صهباء صافيةٍ ... حتى يروحَ كريماً ناعمَ البالِ
واشرَبْ هُديت أبا وهبٍ مجاهرةً ... واختل فإنّكَ من قومٍ إلى خالِ

ويظهر أن أبا نواس الشاعر العباسي قد تأثر بشعر الخمرة في هذا العصر وخاصة بشعر الوليد بن يزيد. قال الأصبهاني بعد أن أورد أبياتاً لهذا الخليفة: «وهذا من بديع الكلام ونادره». وقد جدد فيه منذ أن ابتدأ حتى ختم، وقد نقلها أبو نواس والحسين بن الضحاك في أشعارهما(2). وفي الحقيقة فإن من يقرأ خمريات أبي نواس ويقابلها مع القصائد التي قالها الوليد في الخمر، وقد نشرها

---

(1) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ٨٦.
(2) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ١١٠.

المجمع العلمي في دمشق، يرى شبهاً عظيماً في المعاني والتعابير، ومن المرجّح أن يكون أبو نواس اطلع على قصائد الوليد الخمرية واقتبس منها، وإن شئنا قلنا: سطا على بعض أشعارها وأدخلها في خمرياته.

«هـ» **عامة الناس والشراب**: أما عامة الناس فقد انغمسوا في المسكر وأدمنوا عليه وخاصة بعد أن رأوا إقبال خلفائهم عليه «والناس على دين ملوكهم»، ولا سيما في الحكم المطلق، فإذا أحب الملك شيئاً رغب فيه رجال الدولة ومن بعدهم عامة الناس. والغالب في شاربي النبيذ أن ينبذوه في بيوتهم، وبعضهم يشربه عند إخوانه، وآخرون يتناولونه في الحانات، وكانت كثيرة، وأكثر أصحابها من اليهود، وقد يشربون الخمرة في الأديرة وخمرها مشهورة بجودتها[1].

٣ ـ الجواري

لم يقتصر اللهو في ذلك العهد على الناحيتين السابقتين اللتين ذكرتهما أعني: الغناء والشراب وإنما تعدّاهما إلى شيء آخر عُدّ من متمّماته، وربما كان السبب الأهم في انحطاط الناحية الخلقية، ألا وهو الجواري.

«أ» **أصلهن**: هؤلاء الجواري اللاتي تدفّقن على العرب بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة كان يؤتى بهن من فارس. وقد ذكر البلاذري أن المسلمين غنموا يوم المدائن جواري من كسرى جيء بهن من الآفاق[2]، ويزعم الأستاذ زيدان في كتابه التمدن الإسلامي أن الرقيق الأبيض كان يُحمل من وراء النهر، وأصله من الصقالبة أو من الخزر الأتراك من بادية تركستان، وأحسنهم يربّى في سمرقند وخوارزم، ثم يُحمل إلى بلاد الإسلام. ويحمل أيضاً الرقيق الأبيض من الأندلس، وأصلهن من سبي الإفرنج وجليقية، أو من الصقالبة، ومن الرقيق

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج ٥، ص ١٢٤.
(٢) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٢٦٤.

الأبيض صنف كان يرد على خراسان غالٍ جدّاً وربما بيع الواحد منها بخمسة آلاف دينار. أما الرقيق الأسود فكان يحمل إلى بلاد الإسلام من السودان بطريق مصر وبلاد العرب[1].

«ب» **الرغبة في امتلاكهن**: رغب الجيل الجديد في امتلاك الجواري فشغف بهن وملكن عليه عقله وصار يباهي في حيازتهن، وأخذت المفاضلة بينهن تلعب دورها. روي عن عبد الملك أنه كان يفاضل بين الجواري ويقول: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية، ومن أراد للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد للخدمة فليتخذها رومية[2].

ومن غريب ما روي عن عبد الملك أنه أرسل إلى عامله الحجاج يسأله أن يسيِّر إليه ثلاث جوارٍ مولّدات أبكاراً يكون إليهن المنتهى في الجمال. ثم إن الحجاج دعا بالنخّاسين وسيّرهم إلى كل الجهات يطلبون ضالّة أمير المؤمنين، فلم يزالوا من بلد إلى آخر حتى قضوا حاجتهم ورجعوا إلى الحجاج بطلب الخليفة فبعث بهن إليه مع رسائل تصف كل واحدة منهن[3].

وروى المبرد أنه أُحضر إلى عبد الملك من خراسان ثلاث هدايا هي: جارية، وفص وسيف، وكان بحضرته علي بن عبد الله فقال له: اختر ما شئت، فاختار الجارية وهي من سبي الصغد اسمها سعدى فولدت له سليمان وصالحاً[4].

وذكر الطبري أن الناس كانت تسأل في زمن الوليد عن البناء فصارت تسأل في زمن سليمان بن عبد الملك عن التزويج من الجواري[5].

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج ٥، ص ٢٥.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٤٥.
(٣) المستطرف، للإبشيهي، ص ١٥٢.
(٤) الكامل، للمبرد، ص ٣٦٢.
(٥) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، المجلد ٢، ص ١٢٧٣.

«ج» **أثمانهن**: ازدادت أثمان الجواري وارتفعت ارتفاعاً باهظاً فبلغت آلاف الدنانير. قيل: إن يزيد بن عبد الملك اشترى سلّامة بعشرين ألف دينار[1]، واشترى سعيد بن عبد الملك الجارية زلفاء بألف ألف درهم[2]، وعُرضت على الوليد بن يزيد جارية فلما غنّته أعجبته فدعا صاحبه وقال: اذهب فابتعها مهما بلغت ولا تراجعني في ثمنها[3].

وذكر المسعودي أن فتى من فتيان بني أمية عشق جارية لبعض قريش ويظهر أنه لم يكن يستطيع شراءها لقلة ذات يده، فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز فاشتراها بعشر حدائق ووهبها له[4].

وروى الأصبهاني أن موسى شهوات الشاعر استُهيم بعشق جارية بالمدينة وشُغف بها وساوم مولاها بثمنها فاستام بها شططاً عشرة آلاف درهم، وذهب موسى إلى أهله وإخوانه يستنجدهم فكان كل ما وصل إليه بعد أعطيات إخوانه أربعة آلاف درهم فاستماح بعض أصحابه فأمدّه بالمال اللازم حتى اشتراها[5].

«د» **أثرهن في حياة الخلفاء**: لهؤلاء الجواري في حياة جيل ذلك العصر أثر لا ينكر من حيث انتشار الفسق والفساد وانحطاط الناحية الخلقية عند جميع طبقات المجتمع. وما رأيك بسبيات يعدن عن أوطانهن وذويهن وأصبحن ينتقلن من رجل إلى آخر فمن خليفة إلى شاعر، ومن سيد إلى مولى، ولا رادع نفسي يردعهن ولا زاجر أخلاقي يحول بينهن وبين العبث والخلاعة، فلا عجب إذاً أن تتفكك عرى الحياة العائلية بل عرى الحياة الاجتماعية كافة. فنزع الناس في بعض الأوساط إلى التهتك وتفشّى بينهم المجون بصورة فاضحة، واستعملوا في

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٨، ص ١٠.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٦٣.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ١١٢، طبعة دار الكتب.
(٤) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ٤٣٣.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١١٨.

كلامهم الألفاظ البذيئة والمعاني السافلة. وأنت إذا تصفحت كتاب النقائض لجرير والفرزدق لمست هذه الناحية في نفوس الشعراء خاصة. فهجوا بعضهم هجاءً مقذعاً وأفحشوا فيه، ولعل أحداً لم يبلغ ما بلغه الشاعران ابن ميادة والحكم بن عبدل في مساجلاتهما الهجائية وإفراطهم في إيراد أسفل المعاني وأبعدها عن اللياقة.

ولقد تفشّى هذا النوع من المجون أيضاً بين طبقة خاصة من الناس عرفوا بالمخنثين كانوا يفسدون الناس ويجمعون بين الرجال والنساء بالباطل[1].

لا يخفى ما كان للجواري من كبير أثر في حياة بعض الخلفاء وخاصة اللواتي تمتعن بقسط وافر من الجمال والهبات الفنية كالغناء والعزف وغيره أمثال حبّابة وسلّامة جاريتي يزيد بن عبد الملك وغيرهما من هن أقل شهرة. ويحكى أن هاتين الجاريتين استطاعتا أن تخضعا الخليفة يزيداً لسلطتهما. قال المسعودي: «كان الغالب على يزيد حب جارية يقال لها: سلامة القس، اشتراها بثلاثة آلاف دينار فأعجب بها»[2]. وبلغ من سلطة حبّابة على يزيد أنها أصبحت تُولّي وتعزل من تشاء. وقيل: «إنها لما صارت عند يزيد ظلّت تعمل لعمر بن هبيرة في العراق حتى وليها ورفعت مكانته عند الخليفة وأعلت منزلته حتى كان يدخل عليه أي وقت يشاء»[3].

وكلف يزيد بحبّابة كلفاً شديداً فقال لها يوماً: قد استخلفتك على ما ورد علي ونصبت لذاك مولاي فلاناً، فاستخلفيه لأقيم معك أياماً وأستمتع بك. قالت: فإني قد عزلته، فغضب عليها وقال: قد استعملتُه وتعزليه! وخرج من عندها مغضباً، فلما ارتفع النهار وطال عليه هجرها دعا خصياً وقال: انطلق فانظر أيّ شيء تصنعه حبّابة، فانطلق الخادم، ثم أتاه، فقال: رأيتها بإزار خلوقي وقد

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٥٦.
(٢) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ١٥٧.

جعلت له ذنبين وهي تلعب بلعبها، فقال: ويحك! احتل حتى تمر بها علي، فانطلق الخادم إليها، فلاعبها ساعة ثم سرق لعبة منها وخرج، فجعلت تعدو في أثره فمرّت بيزيد، فوثب عليها وهو يقول: قد عزلته، وهي تقول: قد استعملته فعزل مولاه وولاّه وهو لا يدري(١).

وقيل: إن أحدهم عاتبه على تصرفاته مع جارية وخصوصاً أنه استُخلف بعد عمر بن عبد العزيز الذي عرف بورعه ونسكه فعزم على ترك اللهو والعبث وأقام مدة على هذه الحال، إلا أن ذلك قد شق على حبّابة. وصدف مرة أن رآته خارجاً للصلاة نهار الجمعة فغنّته لحناً فقال: قبّح الله من لامني منك، ثم أمر مسلمة أن يصلي بالناس وعاد إلى ما كان عليه من لهو وشرب(٢).

وحكي أن غنّته مرةً حبّابة فطرب طرباً شديداً وشقّ حلّته وقال لها: أتأذنين أن أطير؟ قالت: وإلى من تدع الناس؟ قال: إليك(٣). وغنّته مرة:

لعمـرك إننـي لأحـبُّ سَلعـاً   لـرؤيتِهـا ومـن بجنـوبِ سلـعِ

ثم تنفّست تنفساً شديداً فقال لها: ما لك أنت في ذمة أبي لئن شئت لأنقلنّه إليكِ حجراً حجراً.

لكن هذه الجارية التي وهبها الخليفة قلبه وملكه ظلّت تحنّ إلى من قبله فأجابته: «وما أصنع به، ليس إياه أردت إنما أردت صاحبه» وربما قالت: «ساكنه»(٤).

ولعل أحداً من الخلفاء الأمويين لم يذهب إلى ما ذهب إليه يزيد هذا في كلفة بجاريته حبابة. رووا لنا أنه لمّا ماتت أقام ثلاثة أيام لا يدفنها حتى أنتنت وهو يشمّها ويرشفها، فعاتبه أقرباؤه حتى أذن لهم بغسلها ودفنها وقام على قبرها وقال:

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ١٥٦.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ١٦٠.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ١٦٠.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ١٦٢.

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَـدَعِ الهوى   فبـاليـأسِ تسلـو منـكِ لا بـالتجلُّـدِ

ثم أقام بعدها أياماً قلائل ومات(١).

وهذا غيض من فيض مما روي عن أخبار يزيد وحبّابة. ومما ذكرتُ يتبين لنا ذلك النفوذ الواسع الذي مارسته الجواري على بعض الخلفاء فكن يعزلن ويولّين ولربما أصبح للجارية منزلة أسمى من منزلة زوجة الخليفة الشرعية.

وكان ابن يزيد الوليد أشدّ تهتكاً على ما يظهر في تصرفه مع الجواري. روي عنه أنه سكر مرة مع إحدى جواريه وحانت صلاة الجمعة فأرسلها لتصلي بالناس ملثّمة سكرى لا تعي(٢).

«هـ» أثرهن لدى سائر طبقات الشعب: هذا وقد تفشّى اقتناء الجواري أيضاً والتسري بهن بين طبقات الشعب من أشراف وخاصة وعامة. روي أنه كان عند المغيرة بن شعبة سبعون جارية بنى بهن جميعاً(٣).

وكانت الشريفة سكينة تقتني جوارٍ مولدات كأنهن التماثيل وهبهن لها زوجها زيد بن عمر(٤).

وكان الخلفاء يجيزون الشعراء بإعطائهم أحياناً الجواري الحسان. حكي عن الوليد بن يزيد أنه أعطى ابن ميادة الشاعر جارية طربة أعجمية لا تفصح، حسناء جميلة لولا العجمة فقال:

جـزاكَ الله خيـراً مـن أميـرٍ   فقـد أعطيـتَ مِبـراداً سخـونـا
بـأهلـي مـا ألـذّكِ عنـد نفسـي   لـو أنـكِ بـالكـلام تُعَـرِّبينـا
كـأنـكِ ظبيـةٌ مَضغـت أراكـاً   بـوادي الجـزْعِ حيـن تُبغمينـا(٥)

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ١٦٥.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ١٢٤.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٤٢.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٧٧.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١١١ ـ ١١٢.

وكانت أم حزرة امرأة جرير جارية أهداه إياها الحجاج بعد أن أمر بتجهيزها فولدت له حكيماً وبلالاً[1].

ويظهر أنهم لم يكتفوا بالجواري البيض فحسب وإنما تسرُّوا بالسود منهن غير آبهين بالأولاد الذين غالباً ما يرثون بشرة أمهاتهم. وقد عرفنا شاعرين أمويين تزوّجا جواري سوداً وكان لهم منهن أولاد وهما الحكم بن عبدل والشاعر الأسدي، وحكي أنه كان عنده جارية سوداء ولدت له ابناً كان من أعرم الصبيان فقال يهجوه:

يا رُبَّ خالٍ لكَ مِسوَدّ القفا   لا يشتكي من رجله مسَّ الحفا
كأنّ عينيه إذا تشوّفا   عينا غُرابٍ فوق نبقٍ أشرفا[2]

وروى صاحب العقد الفريد أن الفرزدق تزوج جارية زنجية فولدت له بنتاً كان يكنى باسمها[3].

هذا وقد كان لهؤلاء الجواري أثرهن العميق في نشر الفساد والفسق كما ذكرت، وكان لبعضهن مهنة خاصة وهي التوسط بين العشاق. روى الأصبهاني أن بعض نساء ذلك العصر كن يقتنين الجواري ليقمن بوظيفة المراسلة، فقد كانت فاطمة بنت عبد الملك ترسل جارية لها إلى عمر بن أبي ربيعة فتشدّ هذه عيني الشاعر وتقوده إلى ابنة أمير المؤمنين كي يضيع عليه الطريق المؤدية إلى مضربها فيفضحها ثم تحل له الوثائق فيجلس عند فاطمة ويسمعها الأشعار الغزلية وهو لا يعرف من هي[4].

وذكر أبو الفرج أيضاً أن عمر بن أبي ربيعة كان يهوى كلثم بنت سعد المخزومية فأرسل إليها رسولاً، وهي إحدى الجواري، فضربتها وأحنفتها أن لا

(١) الكامل، للمبرد، ص ٣٦٢.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٥٧.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٧٨.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٧٧.

تعاود ـ وكان حصل بينها وبين عمر سوء تفاهم من قبل ـ ثم أعادها ثانية ففعلت بها مثل ذلك، فابتاع أمةً سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها إلى منزله فأحسن إليها وكساها وآنسها وعرَّفها خبره، وقال لها: إن أوصلت لي هذه الرقعة إلى كلثم فقرأتها فأنت حرة. فذهبت هذه المكاتبة ـ وهكذا كانوا يسمّونها ـ وما زالت عندها حتى قالت لها: إنها رضيت عنه وقبلت بزيارته لها[1].

وهكذا فقد كان بعض هؤلاء الجواري يغرين النساء ويمهّدن السبل لاجتماعهن بالرجال وينتحلن الأعذار. قيل: إنه حدث سوء تفاهم بين عمر وإحدى صويحباته فجفته ففزع إلى جارية له كانت جزلة من النساء وحلفت لها أنها أساءت الظن به حتى صدّقتها ورضيت عنه فقال عمر بذلك:

فأتتها طَبَّةٌ عالمةٌ   تخلِطُ الجدَّ مراراً باللعبْ
تُغلظُ القولَ إذا لانَتْ لها   وتُراخي عندَ ثوراتِ الغَضَبْ
لم تزل تصرفُها عن رأيها   وتأتّاها بِرِفقٍ وأدبْ

وروي أن حماداً أنشد هذه القصيدة للوليد بن يزيد فقال له: ويحك يا حماد اطلب لي مثل هذه، أرسلها إلى سلمى، يعني امرأته سلمى بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، وكان طلقها ليتزوج من أختها سلمى فتبعتها نفسه[2].

٤ ـ الملاهي والألعاب

منذ أقدم العصور اعتاد الملوك أن يلهوا في ساعات فراغهم بألعابٍ القصدُ منها الترويح عن النفس ورياضة الأجسام والعقول. وإذا ما تصفّحنا تاريخ ألعاب الأمم وجدنا أن لكل أمة ألعاباً توافق عاداتها وتلائم طباع أهلها. ولقد تعرّف العرب على ضروبٍ شتى من الألعاب قبل الإسلام مثل الصيد، والضرب

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٨٢.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٥٩ ـ ٦٠.

بالنبال، والسباق، وظلوا يمارسونها في عصر بني أمية. إلا أنهم لما تمدّنوا بمخالطة الفرس والروم توسّعوا في طرق الصيد والقنص، يقول الأستاذ زيدان: «إنهم اتخذوا الجوارح من الطير وهي البازي والشاهين والعقاب والصقر، فعلّموها صيد الطيور، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها، استعانةً بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش»(١).

ولقد انتقل إلى العرب كثير من ألعاب الفرس، فاقتبسها هؤلاء وزاولوها كالرمي بالبندق، واللعب بالنرد والشطرنج وغيرها وسآتي على وصف أهم ألعابهم.

«أ» **الصيد والقنص**: قلت: إن هذا الضرب من اللعب كان معروفاً عند العرب في الجاهلية. ولكن بني أمية ولعوا به منذ أول عهدهم فكان يزيد بن معاوية شغوفاً به. قال المسعودي: «كان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود»(٢).

ويرى الأب لامنس «أن تربية يزيد في البادية بين أخواله من بني كلب كان لها أكبر الأثر في تلوين بنيته الرياضية. فنشأ محبّاً للصيد مغرماً به»(٣)، وكان يُلبس كلابه الأساور من ذهب والأجلة المنسوجة بالذهب ويقيم على كل كلب من كلابه عبداً يتعهده ويخدمه(٤).

وعن خطبة لأبي حمزة الخارجي يطعن فيها بالأمويين ومنهم يزيد يقول: «ثم ولي الخلافة يزيد بن معاوية، يزيد الخمور، يزيد القرود ويزيد الفهود الفاسق»(٥). ومنهم الوليد بن يزيد(٦). وروى ابن عبد ربه أنه كان مولعاً

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ١٥٠.
(٢) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ١٥٧.
(٣) معاوية، للأب لامنس، ص ٣٥٧.
(٤) الفخري في الآداب السلطانية، ابن الطقطقي، ص ٤٩.
(٥) البيان والتبيين، للجاحظ، ج ١، ص ١٩٥.
(٦) تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ١٥٠.

بالصيد(١). قيل: خرج مرة يتصيد، فصادت كلابه غزالاً فشبّه عينيه بعيني امرأته سلمى وقال شعراً(٢).

ويظهر أنهم كانوا يعيبون على الخلفاء رغبتهم في الصيد، فقال أحد الشعراء وهو عبد الرحمٰن بن همام السلولي يهجو بني أمية بعدما أفضت الخلافة إلى يزيد:

خَشينا الغَيْظَ حتّى لَوْ شَرِبْنا ... دماءَ بني أُميةَ ما روينا
لَقَدْ ضاعَتْ رَعيتُكم وأَنْتُم ... تَصيدونَ الأرانبَ غافلينا(٣)

ومن غير الخلفاء من أقدم على هذا النوع من اللهو الحجاج، فرووا عنه أنه خرج متصيداً مرة عندما كان أميراً على الحجاز فانفرد عن موكبه في ضواحيها(٤).

ومنهم العرجي الشاعر الفاسق. ذكر الأصبهاني أنه كان مشغوفاً باللهو والصيد حريصاً عليهما قليل المحاشاة لأحد فيهما(٥). وذكر في موضع آخر أنه كان من أفرس الناس وأرماهم، وكان له بستان يقال له: العرج يبري من قضبان رمّانه السهام، وكان من حذاقته في الصيد أنه ربما برى مائة سهم قتل بها مائة ناقة(٦).

وروى أبو الفرج أن عبد الرحمٰن بن الحكم وعبد الرحمٰن بن حسان، خرجا إلى الصيد بأكلب لهما من إمارة مروان(٧). ويروى في مكان آخر أن بعضهم استعان بالكلاب وبالشباك(٨).

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ١٨٢.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ٤٩.
(٣) مروج الذهب، للمسعودي، ص ٧١ ـ ٧٢.
(٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ١٢٢.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٥٤.
(٦) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٦٠.
(٧) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ١٥١.
(٨) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٥٢.

ولم يفت عمر بن أبي ربيعة أن يأخذ بنصيبه من هذا اللهو. فلقد ذكر لنا بشعره أنه داهم يوماً إحدى صويحباته وهو على ظهر فرس وبيده البازي إذ قال:

فَلَمْ يَرُعْهُنَّ إلاّ العيسُ طالعةً ... يَحمِلْنَ بالنصفِ رُكّاباً وأكدارا
وفارسٌ معه البازي فقلن لنا ... ها هُمْ أولاء وما أكثرنَ إكثارا[1]

«ب» السباق: عرف العرب هذا النوع من اللهو منذ أقدم العصور فكانوا يتريّضون في حلباته في أيامٍ معيّنة حتى صاروا يتراهنون على الفوز في غالب الأحيان. وبعض هذه المراهنات كانت مدعاةً لحرب ضروس بين عبس وذبيان وهي حرب داحس والغبراء. لكنهم لما تحضّروا بعد الإسلام بالغوا في اتخاذ الميادين واستكثروا من الخيول وتفنّنوا في تضميرها، وروي أنه كان لمعاوية حلبة يخرجون إليها في أيامٍ معينة للسباق. فمن حاز قصب السبق أجازوه[2].

ومن ظريف ما يروى عن يزيد بن معاوية أنه ربّى قرداً وكنّاه أبا قيس، وكان يزيد يسمى بأبي القرود يحضر مجلس منادمته ويطرح له متكأً، وكان قرداً خبيثاً يحمله على أتان وحشية قد رُيِّضت وذُللت لذلك بسرج ولجام، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة، فجاء في بعض الأيام فتناول القصبة وهي القصبة التي تغرس في آخر الحلبة. ودخل الحجرة قبل الخيل. وكان على أبي قيس من الحرير الأحمر والأصفر شمر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمّع بأنواع الألوان. فقال أحد الشعراء في الشام يصف سبق أبي قيس:

تَمَسّكْ أبا قيسٍ بفضلِ عنانِها ... فليسَ عليها إن سَقَطْتَ ضمانُ
ألا من رأى القرد الذي سَبَقَتْ بهِ ... جيادَ أميرِ المؤمنين أتانُ[3]

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، طبعة أوروبا، قصيدة رقم ١٠.
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، ج ٥، ص ١٥١.
(٣) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

وروى المسعودي أيضاً أن هشام بن عبد الملك أقام حلبة اجتمع له بها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس. ولم يُعرف ذلك في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس[1]، وهذا لعمري غاية المبالغة.

ويظهر أن ابنة هشام كانت مُغرمة بالسباق مثل أبيها أيضاً[2]. وكانت قريبتان لمروان بن الحكم تمتطيان جوادين وتتسابقان حتى تبدو خلاخيلهن، حتى إن معاوية أرسل إلى مروان بن الحكم احتجاجاً يقول فيه: (أكفني بنات أخيك)[3].

وذكر المسعودي أن الوليد بن يزيد أجرى الخيل بالرصافة وأقام الحلبة، وراهن يومئذ هو وسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص[4]، ثم يقول المسعودي بعد أن ذكر ذلك: وللوليد أخبار في جمعه الخيول في الحلبة، وربما اجتمع له يوم الحلبة ألف فارس[5]، وهذا العدد أيضاً مبالغ فيه.

«ج» الشطرنج والنرد: هذه الألعاب لم يعرفها العرب قبل الإسلام وإنما كانت من ثمرات الحضارة التي تسربت إليهم من الأمم الأجنبية، ويظهر أن لعبة الشطرنج شاعت زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ مرّ بقوم يلعبونها فقال لهم: ما هذه التماثيل التي أنتم عليها عاكفون؟ ولكنه لم يبدِ أيّ اعتراض[6].

ومما هو جدير بالذكر أن الفقهاء لم يروا بأساً به، اللهم إذا لم يكن هناك مقامرة. قيل: سئل الشعبي عن اللعب بالشطرنج فقال: لا بأس إذا لم يكن تقامر وتبادل[7].

(١) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥، ص ٤٦٦.
(٢) Von Kremer, The Orient Under the Caliph, P.164.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ٦٤.
(٤) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٦، ص ١٤ ـ ١٦.
(٥) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٦، ص ١٤ ـ ١٦.
(٦) المستطرف، للإبشيهي، ج ٢، ص ٢٩٥.
(٧) المستطرف، للإبشيهي، ج ٢، ص ٢٩٥.

وحكي عن ابن سيرين أنه كان يزاول هذه اللعبة ولا يعيب ذلك على لاعبيها[١]. وروي أيضاً عن سعيد بن المسيب أنه كان يلعب الشطرنج ويمارسه[٢].

ومهما يكن من أمر فإن الناس أقبلوا على هذه اللعبة وكانوا يعكفون عليها في نواديهم. ذكر الأصبهاني أن عبد الحكم الجمحي اتخذ بيتاً في المدينة جعل فيه شطرنجات ونردات ودفاتر فيها من كل علم، وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جرّ دفتراً فقرأه أو بعض ما يلعب فيه، فلعب به معهم. فدخل مرة الأحوص فاجترّ الشطرنج وطلب من يلعب معه[٣]. هذا وإن صحّ هذا الخبر، فهذا يعني أن الشباب المتحضر في ذلك العصر ألف حياة اللهو والعبث ولم يفته أن يتمتع ببعض أسباب اللهو من ألعابٍ وسواها، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فصار يجتمع في نوادٍ مجهّزة بشتى الألعاب من نرد وشطرنج وسواها كما ذكرت سابقاً. ويظهر أن لعبة الشطرنج هذه راجت أواخر عهد بني أمية حتى إنها ملكت على بعض الناس عقولهم. فمن رسالة لعبد الحميد بن يحيى كتبها إلى أحد الولاة نيابة عن الخليفة مروان بن محمد فيها ما يشير إلى إقبال بعض الناس على الشطرنج: «وقد بلغ أمير المؤمنين أن أناساً من أهل الإسلام قد ألهجهم الشيطان بها وجمعهم عليها فهم معتكفون عليها من صبحهم إلى مساهم مُلهيةً لهم عن الصلوات»[٤].

وهناك لعبة أخرى عكف عليها بعض الناس في ذلك العهد وهي من تراث الفرس ألا وهي النرد فأباحه الفقهاء إذا لم يكن قماراً. قيل: سئل سعيد بن المسيب، وهو من الفقهاء، عن اللعب بالنرد فقال: إذا لم يكن قماراً فلا بأس[٥].

---

(١) المستطرف، للإبشيهي، ج ٢، ص ٢٩٥.
(٢) المستطرف، للإبشيهي، ج ٢، ص ٢٩٥.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ٥٢.
(٤) رسائل البلغاء، لمحمد كرد علي، ص ١٦٤.
(٥) عيون الأخبار، لابن قتيبة، ج ١، ص ٣٢٤.

ونحن لا ندري إذا كان الخلفاء قد أقبلوا على هذين النوعين من اللعب، والأرجح أنهم لم يعكفوا عليهما إذ إننا لم نقف على ذكرٍ لهما عندهم، ولم تخبرنا الرواة أنهم زاولوهما، ولعلهم استعاضوا عنهما بالسباق والصيد.

«د» الصراع والمهزام والكراج: ويظهر أن الناس عرفوا أيضاً الصراع أو المصارعة وقد اشتهر به هلال الشاعر. وكان يصارع بحضرة أمراء بني أمية في المدينة[١]. وهنالك ألعاب اشتهر بها العامة والمخنثون مثل المهزام. والمهزام لعبة يلعبونها: يغطّى رأس بعضهم ثم يُلكم فيقال له: من لكمك؟ فيقول: فلان[٢]. والكراج أو الكرّج، ويلعبها المخنثون. قال جرير يهجو الفرزدق ويعيب عليه هذه اللعبة:

لِبِسْتُ سِلاحي والفرزدقُ لعبةٌ عليها وشاحا كُرَّجٍ وجَلاجِلُه[٣]

٥ ـ الأماكن التي تفشّى فيها اللهو وأشهر الفساق

يظهر أن هذا اللهو قد تفشّى من جميع نواحيه في أكثر حواضر البلاد العربية مثل دمشق، والبصرة، والكوفة، والمدينة، ومكة، والطائف. لكنه انتشر بصورة خاصة في المدن الثلاث الأخيرة من الحجاز لأسباب عدة، منها أن بني أمية كانوا حريصين على أن يحجزوا الشباب من أبناء الصحابة والتابعين في الحجاز بحيث لا يتعدونها إلى مكان آخر. فكانوا يبذلون لهم الأموال الطائلة ليشغلوهم عن السياسة ويدعوهم في قطرهم آمنين متمتعين بأسباب اللهو. وحقيقةً ما كانت هذه الأموال والأعطيات السنية تصل إلى أيدي هؤلاء حتى يبدّدوها في شتى سبل اللهو والعبث. حكي عن عبد الله بن جعفر السَّري المشهور أنه كان يفد على بني أمية في الشام

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٨٤.
(٢) النقائض، جرير والفرزدق، ج ١، ص ٤١.
(٣) النقائض، جرير والفرزدق، ج ٢، ص ٦٢٤.

فيغمرونه بالأعطيات، وما أن يعود إلى الحجاز حتى تكون هذه الأموال قد تبددت عن بكرة أبيها[1].

وحكي أيضاً عنه أنه كان يُعطى المئة ألف فما تبيت عنده. ورووا أن يزيد بن معاوية أعطاه أربعة آلاف، فلامه بعضهم على ذلك فقال: ويحكم، إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين فما يده فيها إلا عارية[2].

إذاً فقد فتحت هذه الأموال لشباب ذلك القطر أبواب اللهو على مصراعيها واقتدى هؤلاء بسليل البيت الهاشمي ـ أعني عبد الله بن جعفر ـ الذي قيل عنه: إنه التقى بعبد الله بن صفوان فقال له هذا: قد صرت يا أبا جعفر حجة لفتياننا علينا، إذا نهيناهم عن الملاهي قالوا: هذا ابن جعفر سيد بني هاشم يحضرها ويتخذها[3].

فلا عجب إذاً بعد الذي ذكرت أن تغدو مكة والمدينة والطائف مقراً للذة واللهو والقصف. ومن الأسباب التي كانت مدعاة لانتشار اللهو في هذه المدن مواسم الحج وغيرها من المواسم التي كانت تسهّل للشباب سبل اللهو فجعلتهم يتعرفون على شتى حضارات الأمم التي اعتنقت الإسلام وصارت ترد إلى الحجاز بغية الحج. ومهّدت هذه المناسبات للشباب أيضاً السبل للتعرف على المرأة والتعرّض لها والتقرّب منها سواء أكانت حرة أم أمة، شريفة أم وضيعة.

«أ» المدينة: قلت: إن هذا التطور الذي حدث في ذلك العهد شمل الحجاز بصورة خاصة ولا سيما المدينة مركز الخلفاء الراشدين أيام خلافتهم. فتدفّق عليها الفيء من مال ورقيق وسبي. ولقد ساعدها مركزها الجغرافي إذ إنها تقع على سهل تحيط به من بعض جهاته أرض حراء بركانية، وتربته الجنوبية مشبعة بالمياه التي يندر وجود مثلها في سائر الحجاز. وتتدفق هذه المياه وتكثر

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ١، ص ١٤٦.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ١، ص ١٤٥.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ١٥٢.

خاصة بعد نزول الأمطار، وتنحدر السيول، وتفور بعض الأمطار والسيول تحت سطح الأرض وتستقر في جوفها[1]، فكان مركزها هذا مساعداً لها كي تنمو وتزدهر وتكون قبلة أنظار الذين اعتزلوا السياسة وطلبوا الراحة والسكينة وتمسكوا بأسباب الرفاهية أمثال عبد الله بن جعفر وابن أبي عتيق ورفيق لهوه عمر بن أبي ربيعة.

هذا وقد حباها الله تربة خصبة مُنبتة لشتى أنواع الأشجار المثمرة، وعلى رأسها النخيل. ومناخها، رغم شدة الحر صيفاً والبرودة شتاءً، يفضل على مناخ مكة. أما من جهة ثانية فتفضل مكة عليها من حيث كثرة مزروعاتها وأثمارها[2].

كان من الطبيعي إذن لجيل ذلك العصر في المدينة وفي حالة غنى وراحة مثل هذه أن يلجأ إلى اللهو والعبث[3]. وقد أخبرنا الرواة أن الفرزدق كان يقيم في المدينة إذا جاء من الشام، ويرتاد بيوت القيان حتى إن مروان بن الحكم عامل معاوية عليها عاب ذلك عليه واستنكره ثم لقيه فقال:

قُلْ للفرزدقِ والسفاهةُ كأسمِها ... إن كنتَ تاركَ ما نهيتُك فاجلسِ
ودَعِ المدينةَ إنها مذمومةٌ ... واقْصُدْ لمكةَ أو لبيتِ المقدسِ[4]

هذا عدا الحفلات الغنائية التي كانت تُعقد فيها، وقد ذكرت شيئاً عنها فيما سبق. ناهيك عن النوادي التي أنشأها بعضهم وجهّزها بأنواع التسلية والألعاب المعروفة من نرد وشطرنج وما شابههما. ولعل مكاناً في الحجاز كله لم يشهد من اللهو ما شهده موضع قرب المدينة ملتقى الطبقة الراقية، ومتنزه الأشراف والعامة وهو العقيق، ذلك الوادي البديع الذي يبعد أوله عن المدينة نحو ميلين أو ثلاثة من الجهة الجنوبية الغربية[5] تنحدر إليه السيول الهابطة من الجبال المحيطة به،

---

(١) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ج ٤، ص ٤٥٩.
(٢) الموسوعة الإسلامية، انظر مادة Al-Medina.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢١، ص ١٧٩.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢١، ص ١٩٧.
(٥) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ج ٣، ص ٧، الموسوعة الإسلامية مادة Al-Medina.

فتجعل منه نهراً كبيراً يضطرب في بعض الأحيان مثل مد الفرات[١]، ويتفرع بين الجنائن والبساتين ويرويها.

في هذا الوادي البهيج كانت تقام حلقات الأنس والسمر، كل ذلك على ضفاف الماء ووسط رياض غنّاء. ونحن إذا زرنا بخيالنا العقيق متنزه أهل المدينة في أيام الربيع والمطر وتصوّرناه، كما وصفه الرواة، رأينا منظراً مفعماً بالروعة والجمال:

فهنالك جماعة من الجواري انفردت تستحم بمائه وعلى رأسهن سكينة بنت الحسين جلست على حرف الوادي ومالت برجليها في السيل[٢].

وفي مكان آخر عقد المغنّون حلقة يسمرون ويطربون فالتفّ حولهم النساء من أهل الوادي حتى صار مراحهم كمراح الضأن وأقبل ابن عائشة وجلس في قصر من قصور العقيق ثم ألقى رداءه واتكأ عليه وأنشد يغني:

هــــذا مُقــــامُ مطــــرِّدِ   هُـدِمَـتْ منازلُـه ودورُهْ

فلا يرتفع صوت ابن عائشة بالغناء حتى ترى الأعناق اشرأبت إليه، وتحشّد حوله النساء فيقول المغنون: هذا عمل ابن عائشة وحده[٣].

وإنك لكذلك إذا بابن جعفر أتى بموكبه الفخم تحفّه مواليه وجواريه يخترق الجموع ويتجول بين المغنّين فيعطي هذا كساءً موشّى، وينعم على ذاك بجائزة مالية[٤].

وإذا الناس يستمعون إلى الغناء قد أقبل جماعة مرتدين أحسن اللباس ينتقلون بين هذه الحلقات. أتدري من هم؟ هم ثلاثة شعراء جاءوا متنكرين ليستمعوا إلى شيء من الغناء بشعرهم وهم: نصيب، وكثير، والأحوص[٥].

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٧٢.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٧٢.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ١١٥.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١١، ص ٦٧.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٤٢.

وهناك في مكان آخر منفرد وجدت أرقّ الناس غزلاً: عمر بن أبي ربيعة قد واعد نسوة من قريش ليتحدث معهن، وأنهم لكذلك إذ أمطرت السماء، ومع الشاعر رفيق له يغنّيه ويطرب النسوة وهو المغني الغريض فيمسك معه بمطرفته وبرديه ويظللا صويحباته اتقاءً من المطر[١].

وما أن انفضّت هذه الحلقات وتفرّقت الجموع ورقد السامر حتى رأيتَ أبا السائب المخزومي، ذلك الفقيه الزاهد والمتعبّد الناسك، قد أتى بصحبة صديق له إلى العقيق فيجلسان في مكان قربه فينشد له صديقه بيتين للعرجي:

بـاتـا بـأنعَـمِ ليلـةٍ حتـى بـدا   صبـحٌ تلـوّحَ كـالأغَـرِّ الأشقـرِ
فَتَـلازمـا عنـدَ الفـراقِ صبـابـةً   أَخْذَ الغـريـمِ بفَضْـلِ ثـوبِ المعسـرِ

فيقول: «أعده عليّ» فيعيده، فيقول له: «أحسن! والله امرأته طالق إن نطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته» فإذا ما لقيه أحدهم وسأله من أنت؟ أجاب:

فَتَـلازَمـا عنـدَ الفـراقِ صبـابـةً   أخذَ الغـريـمِ بفضـلِ ثـوبِ المعسـرِ

ويلقاه آخر ويكلّمه فيجيبه مردداً الأبيات السابقة. حتى خشي السامع أن يكون به مس من الجن وخاف عليه أن يتهور ببعض آبار العقيق[٢].

ويظهر أن العقيق كان يضاهي في جماله وروعته غوطة دمشق وربما فضّله بعضهم عليها. فقال أبو قطيفة الشاعر الأموي عندما نفي إلى الشام يتغنى بالعقيق والمدينة:

ليتَ شِعْـري هـل البـلاطُ كعهـدي   والمصلّـى إلـى قُصـورِ العقيـقِ[٣]

ومن قوله في قصيدة أخرى يتشوّق إلى متنزه العقيق:

ألا ليـتَ شِعـري هـلْ تغيّـر بَعْـدَنـا   قبـاءٌ وهـلْ زالَ العقيـقُ وحـاضـرُهْ[٤]

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٦٦.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٥.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٥.

هذا الشعر يدلّنا على الأثر العميق الذي تركه ذلك الوادي في نفوس شعراء هذا العصر فحيّاه الشاعر الأحوص بشعر له عندما زار عقيلة المغنية ومَنَعَتْهُ من الدخول:

ضَنَّت عقيلـةُ لمّـا جِئْـتُ بـالـزادِ ... وآثرَتْ حاجة الشادي على النادي
قلتُ لمنـزلهـا حُيِّيـتَ مـن طلـلٍ ... وللعقيـقِ ألا حُـيِّيـتَ مـن وادي[1]

وقد تغنى الشعراء أيضاً بعرصات العقيق ـ وهي المساحات ـ فيه اثنتان منهما ذكرهما ياقوت الحموي فقال: إنهما من أفضل بقاع الدنيا وأكرم أصقاعها. وروي أن بني أمية منعوا البناء بها ضنّاً على جمالها[2] فقال بعض المدينيين:

وبِالعرصـةِ البيضـاء إذ زرتُ أهلَهـا ... مهـاً مُهْمَـلاتٌ مـا عليهـنّ سـائسُ
خَرَجْنَ لحبِّ اللّهـوِ من غيرِ ريبةٍ ... عفـائـفُ بـاغـي اللهـو منهـنَّ آيسُ
يَرِدْنَ إذا ما الشمسُ لم يُخشَ حرُّها ... خـلالَ بَسـاتيـنٍ خـلاهـنّ يـابـسُ
إذا الحـرُّ آذاهُـنَّ لُـذْنَ بِبَحْـرَةٍ ... كمـا لاذ بـالظلِّ الظباءُ الكوانسُ[3]

«ب» **الطائف**: ومن مواسم اللهو في ذلك العصر موسم الصيف في الطائف الذي كان ولا يزال مصيف أهل الحجاز. تقع هذه البلدة في الجنوب الشرقي من مكة على نحو خمسة وسبعين ميلاً، وتعلو خمسة آلاف وأربعمائة قدم عن سطح البحر[4].

يبدو أن هواءها لطيف ومناخها جميل وفواكهها كثيرة وشهية أشهرها العنب والتين والرمان والمشمش والتفاح والدراق والسفرجل والموز[5].

---

(١) الكامل، للمبرد، ص ٣٩٢.
(٢) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ج ٣، ص ٦٤١.
(٣) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ج٣، ص ٦٤٣.
(٤) انظر الموسوعة الإسلامية مادة Al-Taef.
(٥) معجم البلدان، لياقوت الحموي، ج٣، ص ٤٩٥.

وقد بنى فيها الأشراف دُوراً كانوا يؤمّونها أيام الصيف. روى الأصبهاني أن عائشة بنت طلحة لما تأيّمت كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج إلى مالٍ لها عظيم بالطائف وقصر لها هناك فتتنزه فيه وتجلس بالعشيّات فيتناضل بين يديها الرماة[1].

وكانت الثريا صاحبة عمر بن أبي ربيعة تصيف في الطائف. وكان يغدو عليها كل غداة على فرسه إذا كانت هناك[2].

ومما هو جدير بالذكر أن هذه البلدة ساهمت بقسط وافر من اللهو من غناء وشراب وعبث فأدمن بعض أهلها على الشراب[3] وشطّ البعض في فسقهم أمثال العرجي، وسآتي في الكلام عنه في مكان آخر.

«ج» **مكّة**: يبدو أن مناخ مكة حار لا يُطاق في الصيف مما دعا أهلها للالتجاء إلى الطائف. ومناخ مكة الحار هذا جعل منها مشتى يؤمّه الأشراف كما يؤمّون الطائف للصيف، ومما يروى أن أخت الحجاج كانت تشتو بمكة، ومما قاله عمر عن إحدى معشوقاته:

بـالخَيْـفِ منـزلُهـا ومسكنُهـا ... وتحـلُّ مكّـةَ إن شَتَـتْ قصـرا[4]

وأهمية مكة الأساسية إنما هي وجود الكعبة المكرّمة فيها، فكان السفر إليها لا بد منه لأداء فريضة الحج في مواسم معلومة. وقد فتحت هذه المواسم كما ذكرت سابقاً أبواب اللهو لشباب ذلك العصر وعبّدت لهم طرقه فسلكوها مطمئنين لكنهم شطّوا في لهوهم إلى درجة الفسق، فكانوا تحت شعار العبادة يعبثون، ومن وراء حجب الورع يهتكون.

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ٣٠.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٨٩.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١٩٢.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١٩٢.

ففي هذه المواسم كان يجتمع الناس من مختلف البلدان بينهم الحجاج والحاجّات فيخرج الشبان في أحسن لباس، وربما زادوا في تأنقهم ليجلبوا إليهم أنظار الفتيات. وكان الشاعر عمر إذا اعتمر في ذي القعدة يلبس تلك الحلل والوشي ويركب النجائب المخضوبة بالحنّاء عليها القطوع والديباج، ويسبل لمّته[1].

وكان يواعد النساء الحاجّات من شتى أقطار البلاد العربية فيلتقي العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق مُحرمات، ويتلقى المدينيات إلى مرو، ويتلقى الشاميات إلى الكديد. فخرج يوماً للعراقيّات فإذا قبة مكشوفة فيها جارية كأنها القمر تعادلها جارية سوداء كالسبجة. فقال للسوداء: من أنت؟ ومن أين أتيت؟ فقالت: لقد أطال الله تعبك إن كنت تسأل هذا العالم ومن أين هم. قال: فأخبريني عسى أن يكون لذلك شأن. قالت: نحن من أهل العراق، فأما الأصل والمنشأ فمكة وقد رجعنا إلى الأصل، ورحلنا إلى بلدنا. فضحك، فلما نظرت إلى سواد ثنيته قالت: قد عرفناك. قال: ومن أنا؟ قالت: عمر بن أبي ربيعة. قال: وبم عرفتني؟ قالت: سواد ثنيتك وبهيئتك التي ليست إلا لقريش فأنشأ يقول:

قلتُ من أنتُم فصدَّت وقالَتْ ... أمُبِدٌّ سؤالَكَ العالمينا[2]

ويظهر أن عمر كان يتعرض لأية فتاة في الحج سواء عرفها أم لم يعرفها. يحكى عنه أنه تصدّى مرة لامرأة أبي الأسود الدؤلي وكانت جميلة فشكت ذلك إلى زوجها. فعاتبه أبو الأسود على ذلك فقال عمر: ما فعلت شيئاً. ثم إنه عاد فتعرّض لها في اليوم الثاني، فأخبرت زوجها فأتاه إلى المسجد وهو مع قوم جالس فقال له:

وإنّي لَيَثْنيني عَنِ الجَهْلِ والخنا ... وعن شَتْمِ أقوامٍ خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وتقيا وأنني ... كريمٌ ومثلي قد يضرُّ وينفعُ
فشتّان ما بيني وبينك إنني ... على كلِّ حالٍ أستقيمُ وتظلعُ[3]

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٨٨.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٨٨.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٤٨، طبعة دار الكتب.

لكن هذا الكلام وما فيه من تعريض لم يكن يردع عمر وهو دون جوان **Don Juan** عهده فما إن غاب زوجها عنها في اليوم التالي حتى جاء عمر الشاعر فتعرّض لها، فأخبرت أبا الأسود فجاء وقال له:

أنتَ الفتى وابن الفتى وأخو الفتى ... وسيّدُنا لولا خلائقُ أربعُ
نكولٌ عن الجلي وقربٌ من الخنا ... وبخلٌ عن الجدوى وأنك تُبّعُ

ثم خرجت وخرج معها أبو الأسود مشتملاً على سيفه فلمّا رآها عمر أعرض عنها فتمثّل أبو الأسود:

تعدو الكلابُ على مَنْ لا كلابَ له ... وتتقي صولة المستأسدِ الحامي[1]

ومهما يكن من أمر صحة هذا الخبر فهو يدلّنا على أن الشباب في هذا العصر قد تعرّضوا للنساء، ولم يكن الشتم ليؤثّر بابن أبي ربيعة، ولولا سيف أبي الأسود وسطوته لتطاول أكثر من ذلك. وكان العرجي خليفة ابن أبي ربيعة في الغزل وإن شئت قل صنوه في التهتّك والتعرّض للنساء في مواسم الحج، ومن قوله في إحدى الغانيات:

أماطَتْ كِساءَ الخزِّ عن حرِّ وجهها ... وأدنَتْ على الخَدَّينِ بُرداً مهلهلا
من اللاءِ لم يَحْجُجْن يبغين حِسبةً ... ولكن ليقتلْنَ البريءَ المغفّلا[2]

ومن قوله يصف لقاءه بإحداهن في أيام الحج:

ما نلتقي إلا ثلاثَ مِنًى ... حتى يُفَرِّقَ بيننا النفرُ
الحوْلُ بعد الحوْلِ يتبعهُ ... ما الدهرُ إلا الحَوْلُ والشهرُ[3]

ويبدو أن هذا الشاعر الفاسق كان يقصد من الحج الاجتماع بالمرأة فقط

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٤٨، طبعة دار الكتب.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٧، ص ١٢٠.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٦٣.

والتعرّض لها فيرى الحج خلواً من كل شيء إذا لم تحضر صاحبته. استمع إليه يقول:

إنّـي أُتيحـت لـي يمـانيـةٌ ... إحدى بني الحارث من مِذْحَجِ
نلبـثُ حـولاً كـامـلاً كُلَّـهُ ... لا نلتقـي إلا علـى مَنهَـجِ
فـي الحـجِّ إن حجَّـتْ وماذا منى ... وأهلُـه إن هـي لـم تَحْجُـجِ

فلما سمع أحد فقهاء الحجاز هذا الشعر، قال: لعنة الله عليه ما أفسقه، الخير كله في منى إن حجّت أو لم تحجّ[1].

وكان يتسنى للرجل مشاهدة المرأة عن كثب والتمتع بمحاسنها خاصة عند استلام الركن أو الحجر الأسود عندما يشتدّ الزحام ويتدافع الناس كي يصلوا إليه[2].

روى الأصبهاني أن عمر بن أبي ربيعة رأى عائشة بنت طلحة وكانت من أجمل نساء دهرها وهي تريد أن تستلم الركن فبهت لمّا رآها، ورأته وعلمت أنها وقعت في نفسه فبعثت إليه إحدى جواريها وقالت لها: قولي له: اتقِ الله ولا تقل هجراً فإن هذا المقام لا بد فيه مما رأيت. فقال للجارية: أقرئيها السلام وقولي لها: ابن عمك لا يقول إلا حسناً وقال فيها:

لعـائشـة ابنـةِ التيْمـيِّ عِنـدي ... حِمًى في القلبِ لا يُرعى حِماها[3]

ومن طريف ما يحكى عن الشاعر عبد الله بن قيس ـ وكان يلقب بقيس الرقيات لأنه عشق ثلاث نساء كل منهن اسمها رقية ـ أنه شاهد إحدى رقيّاته تقبّل الركن الأسود فانتظر حتى إذا تركته أقبل عليه يلثم المكان نفسه[4].

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٦٢.
(٢) أخبار مكة، للأزرقي، ج ١، ص ٢٣٦.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

ويبدو أن الرجال كان يطيب لهم هذا الازدحام فينتظرونه بفارغ الصبر قال الشاعر:

يـا حبـذا الموسـمُ من موقـفٍ ... وحبـذا الكعبـةُ مـن مشهـدِ
وحبـذا اللاّتـي يُـزاحِمننـا ... عنـد استـلامِ الـرُّكـنِ الأسـودِ

قيل: إنه بلغ خالد القسري وهو والي مكة حينذاك فقال: أما إنهن لا يزاحمنك بعد هذا اليوم أبداً، ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف[1].

ومما هو جدير بالذكر أن هذه المواسم كانت تمهّد سبُل الطرب فيجتمع المغنون في منى وعرفات ويعترضون طرق الحجاج فيقف هؤلاء لسماع صوتهم. وكان المغني ابن عائشة إذا غنى: «حبس الناس واضطربت المحامل ومدّت الإبل أعناقها وكادت الفتنة تقع»[2].

وغنّى مرة الغريض فأوقف الحجّاج وأدهشهم. فقالوا: طائفة من الجن حجّاج[3]. وكان إذا غنّى ابن سريج من أخشب منى غداة النفر لم يبق ترديد أنين ولا حنين إلا سمعته من الأخبية والمضارب[4].

ولم يقف اللهو في المواسم عند هذا الحد، وإنما تعدّاه إلى أمور أخرى من الاستهتار، وكان للشعراء نصيب وافر كما ذكرت عن عمر والعرجي، وكان الفرزدق ممن شهدوها وسلك مع زملائه سبل اللهو فاتخذ جرير ذلك ذريعة لهجوه فقال من شعر له في قصيدة استهلّها بـ(عرفت المواسم من مهدد):

وَجَـدْنـا الفـرزدقَ بـالمـوسِمَيـنِ ... خَبيـثَ المَـداخِـلِ والمَشْهَـدِ[5]

(١) مروج الذهب، للمسعودي، ج ٥ ص ٣٩٩.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ٦٤.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٣٠.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١١٥.
(٥) النقائض ـ جرير والفرزدق ـ ج ٢، ص ٧٩٨.

ومن قوله يردّ على الفرزدق:

متى تَرِدِ الرصافةَ تُخزَ فيها   كَخِزْيِكَ في المواسِمِ كلَّ عامِ[1]

«د» **أشهر الفساق**: على أنه لا بد لي قبل ختام هذا الفصل من ذكر بعض الشواهد التي ذكرها لنا الرواة دلالة على فساد بعض شبيبة ذلك العصر وخاصة الأرستقراطيين منهم الذين يمتّون بصلة وثيقة إلى الخلفاء أو الصحابة أو التابعين، سأذكر على سبيل المثال أسماء بعض هؤلاء.

فمن النساء ذكر الأصبهاني أنه كان لمروان بن الحكم قريبتان يلازمهما الدلال المخنث وكانتا تركبان الخيل وهما صاحبتا مجون وتهتّك، وروي من أمجن الناس، حتى إن معاوية بعث إلى مروان وهو عامله على المدينة يقول: «اكفني إياهما»[2].

أما من الرجال فحدِّث ولا حرج. هذا هو العرجي سِبط عثمان بن عفان رضي الله عنه رووا أنه كان فارساً جواداً ومع ذلك فقد كان فاسقاً وله قصص كثيرة تدل على خلاعته وتهتّكه[3]، وكانت نهايته مأساة مؤلمة، فقد أدى به مجونه وتعرّضه للنساء أن ضُرب بالسياط ونال أشد أنواع العذاب، فأقيم على البلس وصُب على رأسه الزيت وسُجن حتى توفي في سجنه[4].

وهذا هو الوليد بن عقبة أخو عثمان رضي الله عنه لأمه من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم وأجوادهم كان فاسقاً يشرب الخمرة[5]. وهو الذي حكي عنه أنه صلّى بأهل الكوفة الغداة أربع ركعات، ثم التفت إليهم فقال: أأزيدكم؟ وتقيأ في المحراب فقال الحطيئة:

---

(١) النقائض ـ جرير والفرزدق ـ ج ٢، ص ١٠١٦.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ٦٤.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٥٧.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٦١ ـ ١٦٣.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ١٧٧.

شَهِدَ الحطيئةُ يومَ يلقى ربَّه   أن الوليدَ أحقُّ بالعذرِ
نادى وقَدْ تمَّتْ صلاتهُم   أأزيدُكم سُكراً وما يدري
فأبوا أبا وهبٍ ولو أذِنوا   لَقَرَنْتُ بين الشَّفْعِ والوترِ[1]

ومن الأشراف الذين أقبلوا على مثل هذه الأمور ابن أبي عتيق، فبالرغم مما روي عنه من الزهد والورع كان صاحب غزل وفكاهة. وكان صاحب عمر بن أبي ربيعة، فلا جرم أن يتأثر به حتى قيل: إن زوجته عاتكة بنت عبد الرحمٰن المخزومية هجته وقالت:

ذَهَبَ الإلٰهُ بما تعيشُ به   وقمَّرتَ ليلَكَ أيما قَمَرِ
أنْفقتَ مالَكَ غير محتشمٍ   في كلِّ زانيةٍ وفي الخمرِ[2]

ومن هؤلاء الفسّاق الأحوص الشاعر وقد رووا عنه أخباراً غاية في الفسق والتهتّك والخلاعة لا سبيل إلى إيرادها. ومما هو جدير بالذكر أن هذا الشاعر كانت نهايته كصاحبه العرجي، فقد جُلد وصبّ على رأسه الزيت وأُقيم على البلس[3].

هذا وقد كان بالحجاز طبقة من الناس عُرف أصحابها بالمخنثين ـ والمخنث هو الرجل الذي يحاكي المرأة في لباسها وحركاتها ـ وكانوا من أمجن الناس، ويجمعون بين النساء والرجال، ويتوسطون بينهم بالباطل[4].

من هؤلاء الدلال والغريض وابن ميادة وأشعب وطويس. وأنت إذا تصفّحتَ كتاب الأغاني وجدته غاصّاً بأخبارهم ونوادرهم. ولا بأس من ذكر بعضها للاطلاع على أحوالهم في ذلك العصر. فمن نوادر الدلال أنه صلى يوماً

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ١٧٨.
(٢) التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ص ١٣٠ ـ ١٣١.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ٤٤ ـ ٤٨.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ٨٥ ـ ٩٠.

خلف الإمام بمكة فقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] فقال الدلال: لا أدري والله! فضحك الناس وقطعوا الصلاة، فلما قضى الوالي صلاته، دعا به وقال له: ويلك، ألا تدع هذا المجون والسفه؟ فقال له: قد كان عندي أنك تعبد الله فلمّا سمعتك تستفهم ظننت أنك قد شككت في ربك فثبّتك. فهدّده الوالي وأمره أن لا يعاود[2].

وقال جرير: ما ذكرت الدلال إلا وضحكت لكثرة نوادره، فكان إذا تكلم أضحك الثكلى[3].

ومن نوادر أشعب أنه قيل له يوماً: لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان أولى بك. قال: قد فعلت. قالوا له: فما حفظتَ من الحديث؟ قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من كان فيه خصلتان كُتب عند الله خالصاً مؤمناً». قالوا: إن هذا حديث حسن، فما هما هاتان الخصلتان؟ قال: نسي نافع واحدة، ونسيت أنا الأخرى[4]. ومن فكاهاته التي كانت تدور في المدينة أنه أُهدي إليه مرة غلام فذهب به إلى أمه وخشي إن أخبرها بذلك تموت فرحاً. فقطّع عليها الكلام قائلاً: وهبوا لي، قالت: أي شيء؟ قلت: غين، قالت: أي شيء غين؟ قلت: لام، قالت: وأي شيء لام؟ قلت: ألف. قالت: وأي شيء ألف؟ قلت: ميم، قالت: وأي شيء ميم؟ قلت: غلام. فغشي عليها، ولو لم أقطّع الحروف لماتت[5].

وهنالك قصة أوردها الأصبهاني عن أحد المخنثين في منتهى الظرف قال: «رووا أنه ذكر لعمر بن عبد العزيز مخنث بالمدينة أفسد نساءها فكتب إلى عامله

---

(١) سورة يس، الآية ٢١.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ٢٩١، طبعة دار الكتب.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ٢٩١، طبعة دار الكتب.
(٤) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٤٤٢.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٩، ص ١٣٩.

بالمدينة أن يصيّره إليه، فأدخلوه عليه، فإذا هو شيخ خضيب اللحية والأطراف، معتمر بسبتيه قد حمل دفّاً في خريطته، فلما وقف بين يدي عمر صعّد بصره فيه وصوّبه وقال: أسوأة لهذه الشيبة وهذه القامة؟ أتحفظ القرآن؟ قال: لا والله يا أبانا. قال: قبّحك الله! وأشار إليه من أحضره فقالوا: اسكت، فسكت، فقال له عمر: أتقرأ من المفصل شيئاً؟ قال: وما المفصل؟ قال: ويلك! أتقرأ من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، أقرأ ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وأخطىء فيها بموضعين أو ثلاثة. وأقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وأخطىء بها، وأقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مثل الماء الجاري. قال عمر: ضعوه في السجن، ووكلوا به معلّماً يعلّمه القرآن وما يجب عليه من حدود الطهارة والصلاة وأجروا عليه كل يوم ثلاثة دراهم وعلى معلّمه ثلاثة دراهم أخر. ولا يخرج من الحبس حتى يحفظ القرآن. فكان كلما علم سورة نسي التي قبلها. فبعث مع رسول يقول إلى عمر: يا أمير المؤمنين وجّه إليّ من يحمل إليك ما أتعلمه أولاً فأولاً فإني لا أقدر على حمله حملة واحدة - فيئس عمر من فلاحته وقال: ما أرى هذه الدراهم إلا ضائعة، ولو أطعمناها جائعاً أو أعطيناها محتاجاً وكسوناها عرياناً لكان أصلح. ثم دعا به فلما وقف بين يديه قال له: اقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾، قال: أسأل الله العافية، أدخلت يدك في الجراب فأخرجت أشد ما فيه وأصعبه[1].

هذا وإذا تركنا هؤلاء الأرستقراطيين من شعراء ومخنثين في الحجاز وحواضره وسرنا إلى الشام رأينا في قصور الخلفاء والأشراف ما هو أشد وأمرّ من ذلك وقد ذكرت شيئاً من أخبارهم فيما سبق.

وإذا تقدمنا نحو العراق وجدنا شيئاً من هذا في حواضره. فقد أخبرنا ابن عبد ربه أن زياد بن أبيه قدم البصرة والياً لمعاوية والفسق فيها ظاهر فخطب خطبته البتراء[2].

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ٩٠.
(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٢، ص ١٨٣.

لكن هل تفشّى حقاً هذا الفسق تفشياً ذريعاً؟ ألم يكن في حدود الدين وسطوة الخلفاء ما يوقف هؤلاء الشباب عند حدودهم؟

والجواب أن شيئاً من هذا لم يحدث إلا في سنين قلائل من الحكم الأموي حين حاول بعض الخلفاء كمعاوية، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز أن يردعوا هؤلاء الشبان عن طريق الفيء. على أنه يظهر لنا بعد الفحص والتمعّن أن الأمويـين بصورة عامة لم يكن يهمهم أو لم يبالوا في كبح جماح تلك الروح التي تفشّت في الأمصار رغبة منهم في توطيد نفوذهم في الشام ودمشق خاصة، وبذلك يلهون الشباب ومعهم خصومهم عن الاندماج بالسياسة ومن ثم الطموح بالخلافة.

الفصـل الرابع

مكانة المرأة العربية في العصر الأموي

تـوطـئة: لمحة عن مكانة المرأة العربية قبل العصر الأموي

سوف لن أتناول في هذا الفصل سوى المرأة الحرة من النساء في حياتها العامة لأنه سبق لي أن بحثت بتفصيل عن الأَمة وما كان لها من أثر إبان العهد الأموي، وإذا قلت حرة فإني أعني بها المرأة العربية التي كان بينها وبين الأمة بون شاسع في الهيئة الاجتماعية.

«أ» المرأة العربية في أقدم عصور الجاهلية

للمرأة منذ أقدم العصور عند العرب شأن عظيم وقيمة لا يستهان بها في حياتهم. ونحن إذا تصفحنا تاريخهم وجدناه مفعماً بأعمالها المثيرة للإعجاب فمن النساء اللاتي اعتلين العروش، بلقيس ملكة سبأ وقد اشتهرت برجاحة عقلها وجمالها وحزمها وكان لها كما ذكر لنا الرواة علاقات مع سليمان الحكيم. ويقال إنها تزوجت سليمان الحكيم.

ومنهن الزباء ملكة تدمر التي ملأت أخبارها التاريخ وهي المرأة التي اشتهرت بجمالها البارع وهمّتها العالية وسعة اطلاعها، هي الملكة التي امتد سلطانها من ضفاف الفرات إلى شواطىء النيل وجعلت تدمر مقر ملكها، هي الأديبة التي قربت العلماء والشعراء وجالست القواد والأعيان وساجلتهم، هي البطلة التي خشي بأسها القائد الروماني أورلثانوس وقال: خذوا عنها فن الحرب. وإذا كان الغرب يفاخرنا بجان دارك تلك الفتاة التي أنجبها القرن الخامس عشر

فلنفاخره بامرأة عربية ملأت قلوب الرجال رعباً وفرقاً إذ سبقت تلك باثني عشر قرناً.

«ب» المرأة العربية قبيل الإسلام

ناهيك عن النساء العربيات ذوات النفوذ والوجاهة مثيلات ماء السماء بنت عوف التي ملكت الحيرة وتحدّر من نسلها عمرو بن هند بن المنذر[١]، وهند بنت النعمان التي قيل إنها أدركت عصر الأمويين وكانت قد ترهّبت في دير بعد أن فقدت بصرها[٢].

وما وصلنا من أخبار الشاعرة الخنساء ـ إن صح ـ يدل على الحرية التي كانت تتمتع بها هذه المرأة. فقد قيل إن دريد بن الصمة خطبها إلى أبيها فأجابه هذا مرحباً به: «إنك السيد الذي لا يُردّ في حاجة، ولكن لهذه الفتاة في نفسها ما ليس لغيرها، وأنا ذاكرك لها»[٣].

وهنالك أدلة أيضاً تشير بصراحة إلى مبلغ حرية بعض النساء ـ إذ إن التعميم لا يصح ـ في اختيار من تشاء ورفض من تشاء زوجاً لها. ولم يكن الأب يقدم على تزويج ابنته إلا بعد أن يشاورها ويأخذ رأيها. فقد روي أن الحارث بن عوف طلب إلى أوس بن خارجة أن يزوجه إحدى بناته فعمد هذا الأخير إلى استشارتهن[٤].

وكما أنه كان للمرأة حق في اختيار الزوج كذلك كان يحق لها أن تفصمه، فقد روى أبو الفرج أن النساء كن يطلقن الرجال في الجاهلية[٥]، وقد أتيت على ذكر ذلك آنفاً. ويظهر أن حرية اختيار الزوج كانت من امتيازات بنات الأسر

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ٤٢.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ٣٢.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٩، ص ١١.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٩، ص ١٤٩.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٦، ص ١٠٦.

الشريفة فقط. هذا وإذا انتقلنا من العصر الجاهلي الأول إلى عهد النهضة الاجتماعية التي حصلت قبيل بزوغ فجر الإسلام؛ رأينا المرأة العربية تتمتع بقسط وافر من الاستقلال والحرية المطلقة في المتاجرة بأموالها والتصرف بها. فقد حكي عن السيدة خديجة زوجة الرسول ﷺ أنها قبل زواجها كانت تتاجر بأموالها على يد رجال أمناء تنتقيهم، فلما سمعت بشهرة الرسول ﷺ قبل الدعوة عرضت عليه أن يخرج بأموالها إلى الشام ففعل وقد كانت هذه المرأة الشريفة خير عون للنبي ﷺ في نشر دعوته.

«ج» المرأة العربية في عهد الخلفاء الراشدين

ومن شهيرات النساء في عصر الخلفاء الراشدين ذوات المكانة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وكانت ذات عقل راجح، وذكاء وقّاد، ودهاء قل نظيره. وقد ترأست حزباً كبيراً من الصحابة وأثارت حرباً عواناً كان لها أثرها في مجرى السياسة والتاريخ. وكانت فضلاً عن ذلك ملمّة بالأدب والحديث، روى عنها كثير من الصحابة والتابعين[١].

ولقد ضاهتها في النبوغ أختها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه وحديثها مع ابنها عبد الله بن الزبير مشهور. فقد حوصر هذا البطل في مكة وخانه أصحابه فلما يئس من الفوز التجأ إليها فحرّضته على استقبال الموت بشرف وأمرته أن لا يسلم نفسه لبني أمية فيعيش ذليلاً فسمع بنصيحتها وخرج مقاتلاً حتى قتل[٢].

من هنا يتبين لنا المكانة التي كانت للمرأة العربية في شتى العصور قبل العصر الأموي فلنر ما كانت عليه في هذا العهد.

مكانة المرأة العربية في العصر الأموي

يبدو أن المرأة العربية في ذلك العصر كانت تتمتع بدرجة من الحرية لم

---

(١) السيرة، لابن هشام، ص ١٠٠١.
(٢) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، مجلد ٢، ص ٨٥٢.

تتوفر للنساء في عصر من عصور التاريخ عموماً والشعوب قاطبة. فأخبار سكينة بنت الحسين، وفاطمة بنت عبد الملك، وعاتكة بنت يزيد، وعائشة بنت طلحة والثريا بنت علي بن عبد الله، وزينب بنت موسى الجمحية، وغيرهن من النساء الشريفات في ذلك العصر، ملأت كتب الأدب. وأخبار الزرقاء، وخولة بنت الأزور، وغزالة الحرورية غصّت بها الكتب إعجاباً وإكباراً. ومكانة المرأة تتجلى في مظاهر عدة منها: حياتها الأدبية الراقية، مجالسها إذا جلست، مواكبها إذا سارت إلى الحج، واشتراكها في الحروب، إلى غير ذلك.

١ ـ حياة المرأة الأموية الراقية

حكي عن سكينة بنت الحسين أنها كانت مولعة بالأدب، محبة للشعر تجالس الشعراء، وتدعوهم إلى دارها، فيتناشدون الأشعار وتصغي إليهم وتنتقدهم وقد انتقدت مرة شعراً للحارث بن خالد المخزومي[١].

وقد كان منزلها كعبة الأدباء، وقبلة العلماء وقد سبقت الأديبة الفرنسية Melle De lespinasse التي كان لها في فرنسا صالون في القرن الثامن عشر، كان يجتمع فيه الأدباء والعلماء الفرنسيون أمثال ديدرو وهولباخ وتوركو، كما كان جرير والفرزدق وكثير عزة وجميل بثينة يؤمّون منزل سكينة حيث تتناجى الأرواح، وكانت تحكم بينهم وتبدي رأيها بعقل وتبصّر[٢].

وكانت سكينة تفضّل شعر عمر بن أبي ربيعة. قيل: إنه اجتمعت لديها نسوة ذكرنه فتشوّقن إلى حديثه وتمنّينه، فقالت سكينة: أنا لكُن به، فبعثت إليه رسولاً أتى به فحدّثهن وأنشدهن أبياتاً غناها المغني الغريض فقالت سكينة: أحسنت، وأخرجت إليه أربعة آلاف درهم[٣].

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١٠٧.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

وكانت ظريفة مزّاحة، وكان من مزاحها مرة أن أجلست شيخاً فارسيّاً على قفة فيها بيض وأمرته أن يقاقي كالدجاجة إيناساً للحاضرين[١].

ويروى عنها أيضاً أنها بعثت إلى صاحب الشرطة تقول: إنه دخل علينا شامي، فأرسل بالشُّرط، فركب ومن معه فلما أتى إلى الباب فتحت له ثم أمرت جارية فأخرجت إليه برغوثاً وقالت: هذا هو الشامي الذي شكوناه[٢].

وإذا ذكرنا سكينة انتقل فكرنا إلى امرأة شريفة أيضاً نغّصت على سكينة عيشها فترة من الزمن إذ اجتمعتا عند زوج واحد وهو مصعب بن الزبير، وكانت لا تقلّ جمالاً وشرفاً ومحتداً عن ضرتها ألا وهي عائشة بنت طلحة.

قيل: إن هذه الشريفة وفدت مرة على هشام بن عبد الملك وعنده مشايخ بني أمية فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه وما طلع نجم ولا غار إلا وسمّته. فقال هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لكِ؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة، وتعني بها أم المؤمنين، فأمر لها بألف درهم وردّها إلى المدينة. ورووا أنها أُنشدت مرة قصيدة قيس بن الحدادية:

أَجِـدَّكَ إنْ نُعْـمٌ نَـأَتْ أنـت جـازعُ ... قَـدِ اقتـرَبَـتْ لـو أنَّ ذلـكَ نـافـعُ

فاستحسنتها وكان بحضرتها جماعة من الشعراء فقالت: من يقدر منكم أن يزيد فيها بيتاً واحداً يشبهها ويدخل في معناها فله حلّتي هذه. فلم يقدر أحد منهم على ذلك[٣].

وكانت كزميلتها سكينة تحب شعر عمر بن أبي ربيعة وتستشهد به. روى أبو الفرج أنه كان بينها وبين زوجها عمر بن عبد الله بن معمر كلام، فسهرت ليلة فقالت: إن ابن أبي ربيعة لجاهل بليلتي هذه يقول:

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٤، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٤، ص ١٦٦.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ٧.

ووالٍ كفاها كلَّ شيءٍ يهمُّها   فَلَيسَتْ لِشَيءٍ آخرَ الليلِ تسهرُ[1]

وكان الشعراء ينشدونها فتجيزهم. أنشدها النميري مرة من شعره في محبوبته زينب بنت يوسف أخت الحجاج فأجازته. ثم أنشدها من شعر الحارث بن خالد بها فأجازته أيضاً ألف درهم وكسته حلتين[2].

حدّثوا أنها حجت إلى مكة في ولاية الحارث بن خالد المخزومي فأرسلت إليه تسأله أن يؤخر الصلاة حتى تفرغ من طوافها. فأمر المؤذنين فأخّروا الصلاة حتى فرغت من طوافها. فأنكر أهل الموسم ذلك الأمر وأعظموه، وبلغ عبد الملك ما فعل عامله فعزله وكتب إليه يؤنبه فقال الحارث: ما أهون والله غضبه إذا رضيت. والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخَّرْتُ الصلاة إلى الليل[3].

ويحكى أن زوجها الثاني مصعب بن الزبير أمهرها ألف ألف درهم كما كان قد أمهر ضرتها سكينة من قبل[4]. وكانت وهي عنده لا تستر وجهها من أحد فعاتبها مصعب في ذلك فقالت: «إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم، فما كنت لأستره»[5].

٢ ـ رغبتها في التشبيب بها

ومما هو جدير بالذكر أن المرأة العربية في ذلك العصر لم تكن ترفض التشبيب بها بل كثيراً ما كانت ترغب أن ينسب بها الشعراء وتغضب إذا لم يذكروها في شعرهم. فقد روي عن فاطمة بنت عبد الملك أنها أرادت الحج فكتب الحجاج بن يوسف إلى عمر بن أبي ربيعة يتوعده إن ذكرها بشعره أو

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٣٨ ـ ٣٩.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ٣٠.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١٠٣.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١٢٢.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ٥٤.

عرّض باسمها. وكانت ترغب أن يشبّب الشاعر بها. فلما قضت حجها خرجت فمر بها رجل فقالت له: من أنت؟ قال: من أهل مكة. قالت: عليك وعلى أهل بلدتك لعنة الله! قال: ولم ذاك؟ قالت: حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر العين مثلهن، فلم يستطع الفاسق ابن أبي ربيعة أن يزوّدنا من شعره أبياتاً نلهو بها في سفرنا. قال: فإني لا أراه إلا قد فعل. قالت: فأتنا بشيء إن كان قاله ولك لكل بيت عشرة دنانير. فمضى إليه وأخبره فقال: لقد فعلت ولكن أحب أن تكتم عليّ. قال: افعل. فأنشده:

راعَ الفؤادَ تفرُّقُ الأحبابِ   يومَ الرحيلِ فهاجَ لي أطرابي[1]

فهذه الرواية إن صحّت تدلّ على رغبة النساء في أن يقال بهن الشعر إما بغية التسلي كما اشتهت فاطمة، وإما، وهو المرجح عندي، حرصهن على أن يذيع هذا الشعر وتتناقله الألسن فتشتهر صاحبته ويتحدث الناس عنها ويتهافت الخطّاب إلى طلبها.

٣ ـ مواكبها في الحج

ومما يشير إلى مكانة المرأة العربية وخاصة الشريفة التي تحدرت من بيت أرستقراطي، تلك الحياة المترفة التي كانت تحياها وقد أتيت على ذكرها في فصول سابقة. ثم ذلك البذخ في اللباس والهيئة. وكان يتجلى خاصة في المواكب التي كانت تسيّرها الشريفات إلى الحج. وكانت المرأة إذا حجّت لبست أحسن الثياب وتزينت أحسن الزينة وتحلّت بأثمن الجواهر. وكانت مواكب الشريفات في غاية الأبهة والعظمة، تحفّهن الجواري ذات اليمين وذات اليسار، ولعل ما كان يُنفق على هذه المحامل والهوادج لا يتسنى لنساء أصحاب الملايين اليوم تقليده إذا قمن يشتركن في مهرجان أو احتفال.

روى أبو الفرج أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت يوماً زوجها عبد

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٢، ص ١٢٨.

الملك في الحج فأذن لها وقال: ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائشة بنت طلحة تحج. ففعلت وجاءت بهيئة جهدت فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة، إذا بموكب قد جاء فضغطها ومزق جماعتها فقالت: إن هذه عائشة بنت طلحة. فسألت فقالوا: هذه خازنتها. ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك فقالوا: عائشةَ! عائشةَ! فضغطهم فسألت عنه فقالوا: هذه ماشطتها، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج فقالت عاتكة: ما عند الله خير وأبقى[1].

وحُكي أيضاً عن عائشة أنها حجّت ومعها ستُّون بغلاً عليها الهوادج والرحائل فعرض لها عروة بن الزبير فقال:

عـائـشُ يـا ذاتَ البغـال الستيـن ... أكـلَّ عـامٍ هكـذا تحجّيـن

فأرسلت إليه: نعم يا عُريّة فتقدّم إن شئت، فكفّ عنها[2].

٤ ـ اشتراكها في الحروب

ومظهر آخر كانت تتجلى فيه مكانة المرأة العربية في ذلك العصر. ألا وهو اشتراكها في الحروب. فقد روي أن كثيراً من نسائه كن يصحبن الرجال إلى ساحات القتال يساعدنهم في الدفاع والهجوم ويبثن فيهم روح الحمية بما يلقينه من خطب وأشعار حماسية. من هؤلاء النسوة غزالة الخارجية وتعدّ من أشجع القادة الذين دوّخوا البلاد وروّعوا الجيوش ودبّوا الرعب حتى في قلب الحاكم الجبار الحجاج بن يوسف الذي كان يخشى بأسها ويتحاشاها، حتى عيّره في ذلك عمران بن حطان وكان الحجاج قد لجّ في طلبه:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ ... ربداءُ تجفلُ من صفيرِ الصافرِ
هلّا برزتَ إلى غزالةَ في الوغى ... بلْ كان قلبُك في جناحَي طائرِ
صرعَتْ غزالةُ جمْعَه بعساكرٍ ... تَرَكَتْ كتائبَه كأمسِ الدابرِ[3]

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ٦٠.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٠، ص ٦٠.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١٣، ص ١٥٥.

وقد بلغ من شجاعتها وقوة قلبها أن نذرت إذا دخلت الكوفة أن تصلي في مسجدها ركعتين طويلتين تقرأ فيهما سورة البقرة وسورة آل عمران. وكان أن تحققت أمنيتها فدخلت إلى الكوفة مع ابنها شبيب وقام هذا الأخير ورفعها إلى المنبر فخطبت بالناس ووفت نذرها[1].

ومن نساء الخوارج أم حكيم زوجة قطري بن الفجاءة. وكانت من أعظم الناس ذكاءً ومضاءً وجمال وجه، ونفاذ رأي، ومن قوله فيها:

لعمرك إنـي فـي الحياةِ لزاهدٌ ... وفي العيشِ ما لمْ ألقَ أمَّ حكيمِ
من الخَفِرات البيضِ لم يُرَ مثلَها ... شفاءٌ لذي بثٍّ ولا لسقيمِ
ولو شهدَتْني يومَ دولاب أبصرتْ ... طِعانَ فتى في الحربِ غيرَ ذميمِ[2]

هذا وقد أظهر نساء الشيعة شجاعة وحزماً لا يقلّان عن شجاعة المرأة الخارجية، فمنهن الزرقاء بنت عديّ، وهي امرأة من أهل الكوفة أعانت علياً رضي الله عنه يوم موقعة صفين. ورُوي عنها أنها في ذلك اليوم ركبت جملاً أحمر وراحت توقد الحرب وتحضّ الرجال على القتال[3].

ومنهن بكارة الهلالية وقد اشتركت في معركة صفين أيضاً وحرّضت الناس على القتال، ولها مواقف حماسية ومن شعرها قولها:

يا زيدُ دونَك فاستثر في دارنا ... سيفاً حساماً في الترابِ دفينا
قد كانَ مذخوراً لكلِّ عظيمةٍ ... فاليومَ أبرزَه الزمانُ مصونا[4]

٥ ـ السفور والحجاب

لا أستطيع البحث في أصل الحجاب وتدرجه خلال العصور التي سبقت

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري، مجلد ٢، ص ٩٤٦.
(٢) الكامل، للمبرد، ص ٢١٤ ـ ٦١٨.
(٣) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، لعبد الله عفيفي، ج ٢، ص ١٩٦.
(٤) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، لعبد الله عفيفي، ج ٢، ص ١٩٧.

العصر الأموي لأن ذلك يتطلب معالجة طويلة لا مجال للخوض في غمارها. وسأقتصر على إيضاح هذه الناحية في العهد الأموي المعني الآن.

يظهر أن الحجاب في ذلك العصر شأنه في كل حقب التاريخ العربي منذ الجاهلية الأولى إلى وقتنا الحاضر، إذ إنه لم يكن عاماً شاملاً كما أنه لم يقتصر على طبقة خاصة من الناس. فقد وجد بين نساء الخلفاء من تحجّبن كما أنه وجد بين نساء العامة من ظهرن سافرات. نعم لقد كانت بعض المواسم في ذلك العصر تستدعي ظهور المرأة أمام الرجل. فكان لا بد أن يراها، مثلاً عند استلام الركن أو حين رمي الجمار. فيخبرنا الرواة أن عمر بن أبي ربيعة رأى عائشة بنت طلحة وهي تريد أن تستلم الركن، فلما رآها بهت فأرسلت إليه تقول: اتق الله ولا تقل هجراً، فإن ذلك المكان لا بد فيه مما رأيت[1]. وقيل: إنه داهمها وهي ترمي الحجار سافرة فشبّب بها[2].

وكان لا بد أن تتعرض المرأة أمام الرجل في مواسم أخرى غير تلك كحفلات الغناء ومجالس الأدب وسيل العقيق والأعياد. وكانت النساء مغرمات بالغناء يستقدمن المغنين ويجالسنهم حتى إذا انصرفوا أجزلوهن العطاء. حكي عن المغني الغريض أنه غنى بحضور عائشة بنت طلحة وعاتكة ولما انصرف قال: ما انصرف واحد من ذلك الموسم بما انصرفت به نظرة من عائشة ونظرة من عاتكة وهما من أجمل نساء عالمهما[3].

ناهيك عن مجالس الأدب التي كانت تعقد ويحضرها النساء فيستوجب ذلك أن تبدو المرأة ظاهرة للعيان يراها الرجل ويحادثها فيأخذ رأيها كما سبق وذكرت عن سكينة التي كان يحتكم لديها الشعراء، وكذلك المغنون، وحسبك بأخبار كثيرة عن النساء غير الشريفات اللاتي كن يظهرن سافرات وخاصة في

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ٨٠ ـ ٨١.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

متنزهات العقيق. فقد روى الأصبهاني أن ثلاثة شعراء بينهم الأحوص وكثير ساروا غِبّ يوم أمطرت فيه السماء يطلبون العقيق ليمتعوا فيه أبصارهم. فلبسوا وتزينوا وركبوا حتى أتوا العقيق فجعلوا يتصفحون ويرون بعض ما يشتهون حتى رفع لهم سواد عظيم، فأمّوه حتى أتوه فإذا وصائف ورجال من الموالي ونساء فحلّفنهم أن ينزلوا فنزلوا ولهوا عندهم بسماع الغناء[1].

وكانت النساء يسفرن في الأعياد العامة. زعم الأصبهاني أن النساء كن يتزينّ في الأعياد فيبدو بعضهن لبعض ويظهرن للرجال[2]، وروي عن جميل بثينة الشاعر أنه أول ما أحب بثينة وعشقها حينما شاهدها في أحد الأعياد فرأى منها منظراً أعجبه[3].

ويبدو أن التقيّة والمحافظة منهن كانت تحافظ على خمارها فلا تبدو إلا به، وهنالك إشارات صريحة إلى أن بعض النسوة كن يتحجبن إذا كان لا بد من الاستماع إلى الغريض وشعر عمر بن أبي ربيعة فيجلس هؤلاء بعيدين ويأخذ النساء عليهن الجلابيب ويتقنعن بالخُمر[4].

وبلغ التقى ببعضهن أن لجأن إلى تستير أيديهن، قال النميري: يشبّب بزينب أخت الحجاج:

يُخبّئنَ أطرافَ البَنانِ منَ التُّقى ... ويَخرُجْنَ جَنحَ الليلَ معتمراتِ[5]

ومن شعر الحارث المخزومي في بعض النساء زمن الطواف مشيراً إلى أخمرتهن:

فَفَرَغْنَ عن سبعٍ وقد جَهُدَتْ ... أحشاؤهن موائلَ الخُمُرِ[6]

---

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٤٣.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ٨١.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٧، ص ٨١.
(٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ٨٦.
(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ١٩٥، طبعة دار الكتب.
(٦) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ١٠٨.

ومن شعر لعمر بن أبي ربيعة في إحدى صويحباته مشيراً إلى إزارها وخمارها:

وآشْتَكَــتْ شِــدَّةَ الإزارِ مِــنَ البُهْـــ ـــرِ وأَلْقَتْ عنهــا لــديَّ الخمــارا[1]

ويظهر أن تحجُّب بعض النساء وسدلهنّ الخُمر الشفافة من خز وسواه كانت الغاية منه التجميل فقط. روى الأصبهاني أن تاجراً من أهل الكوفة قدم المدينة بخمر فباعها كلها وبقيت السود منها فلم تنفق وكان صديقاً للشاعر الدارمي فشكا ذلك إليه فقال له: لا تهتم فإني سأنفقها لك حتى تبيعها كلها ثم قال:

قُــلْ للمليحـةِ فـي الخمـارِ الأسـودِ ... مــاذا صَنَعْـتِ بنـاسـكٍ متعبـدِ
قــدْ كــانَ شمّـر للصـلاةِ ثيـابَـه ... حتـى وقفـتِ لـه بـبـاب المسجـدِ

وغنى به فلم تبق في المدينة ظريفة إلا وابتاعت خماراً أسود حتى نفذ ما كان مع العراقي كله[2] وحسبك هذا دليلاً على أثر ذلك الخمار وما يبدي تحته من محاسن حتى يؤخر الناسك المتعبد عن صلاته!

وقيل: إن عبيد اللّه بن عمر العمري لام امرأة على كلام تفوّهت به وقال لها: ألا تخافين من الله وأنت في الحج؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً ثم قالت: تأمّل يا عم فإنني من عناه العرجي بقوله:

أماطَتْ كساءَ الخزِّ عن حرِّ وجهِها ... وأَدْنَتْ على الخدَّيْنِ برداً مُهلهلا
من اللاءِ لم يحججنَ يبغين حِسبةً ... ولٰكِـنْ ليقتلـنَ البـريءَ المُغَفَّـلا

قال: فقلت: إني أسأل الله أن لا يعذّب هذا الوجه بالنار[3].

ومهما يكن من أمر فإن الذي يتبين لي أن نساء الأشراف كن بصورة عامة

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٣٤٤.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٣، ص ٤٦، طبعة دار الكتب.
(٣) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ١، ص ١٦١.

لا يتحاشين الظهور سافرات. فقد روي عن امرأة عبد الملك أم ولديه الوليد وسليمان أنها كانت لا تغطي وجهها[1]. وحكي عن عمرة صاحبة أبي دهبل الجمحي أنها كانت امرأة جزلة تجالس الرجال وتحادثهم وهي سافرة[2].

والمرجّح لدي أن الجميلة منهن كانت تكره أن تستر وجهها ضناً بجماله، فمن أين لعائشة بنت طلحة مثلاً أن تستر وجهها بعد أن سمعت قول أبي هريرة: «سبحان الله ما أحسن ما غذاك أهلك، والله ما رأيت وجهاً أحسن منك»[3].

هذا ما استطعت استخلاصه عن السفور والحجاب في العصر الأموي، وذلك استناداً إلى مصادر اختلف أصحابها بالرأي. فمنهم من حبّذ السفور وذلك تغزّلاً بجمال المرأة، ومنهم من عاب عليها ذلك، ولا أدري إن كان ذلك تعصباً للدين أم غيرة على الجمال الذي كان عرضة للتشهير بعض الأحيان كما رأينا!

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٨٩.
(٢) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ج ٦، ص ٢٥٥.
(٣) العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢٨٦.

الخاتمة

ماذا نستنتج من دراستنا للمجتمع الأموي؟

إن أول ظاهرة تسترعي انتباهنا واهتمامنا هي الأسرة. هذه الحجيرة الأساسية في جسم المجتمع والمعوّل عليها في ازدهاره ورقيّه. فإذا صلحت بتماسك أعضائها وتآلفهم صلح المجتمع بأسره، وإذا فسدت فسد. فلنتساءل هل كان في ذلك العهد حقيقة ما يصحّ أن نطلق عليه اسم أسرة؟

أظن أن الجواب على هذا السؤال سلبي. فبالرغم من المكانة التي أحرزتها المرأة العربية في ذلك العهد كما رأينا، ظلت كثيراً من الأحيان تخضع لمشيئة زوجها فينغّص عليها عيشها باتخاذ غيرها من الحرائر أو الإماء وما كان أكثرهن. وربما فضّل عليها الأمة، وهذا يكفي لبثّ الغيرة والحقد في نفوس الأمهات من جهة والأولاد من جهة أخرى، إذ لا شيء يكدّر صفو عيش الولد أكثر من زوجة الأب الواحدة فكيف بزوجات عديدات؟

تفككت إذاً عرى العائلة، وكان من جرّاء ذلك أن دبّ الخلاف والفساد في جسم المجتمع الأموي فقلّت هيبة الدين وزال الورع من النفوس وشاع المنكر وانحطّت الأخلاق.

وهناك ظاهرة أخرى في المجتمع الأموي تستلفت النظر ألا وهي التفاوت العظيم بين طبقاته من حيث المكانة والمعيشة. فإذا انتقلنا من طبقة الخلفاء الذين عاش معظمهم حياة بذخ وترف إلى الطبقة الأرستقراطية وأصحابها من البيوتات الكبيرة الذين تربطهم بالخلفاء والصحابة صلات وثيقة، نرى أن هذه الطبقة استطاعت بما لها من نفوذ لدى الحكام أن يسيطر بعض أفرادها على شؤون الدولة فيولّون الذين يرغبون ويعزلون من يشاؤون.

ثم إن هذه الطبقة الأرستقراطية لعبت في المجتمع الأموي دوراً هامًّا حتى تكاد الأخبار التي وصلتنا تنحصر بهم وحدهم وهذا ما يلاحظه القارىء. وأنت

إذا تصفّحت كتاب الأغاني أو سواه من الكتب التي بحثت في الحياة الاجتماعية الأموية وتعمقت فيها وجدتها تستند خاصة إلى أخبار هذه الطبقة، فتتناول رجالها ونساءها تروي قصصاً عن حياتهم وزواجهم ومآكلهم ومشاربهم ومساكنهم وأثاثهم وطرق لهوهم، إلى غير ذلك من المظاهر التي تكوّن بمجموعها ما نسمّيه الحياة الاجتماعية.

أما الطبقة الوسطى من تجّار وصنّاع وزرّاع فلم نقف لهم إلا على النزر اليسير من الأخبار. ومن المرجّح أن أفرادها كانوا من الموالي أو النصارى أو اليهود وهذا يكفي لإهمالهم بعض الشيء نظراً لتعصب الأمويين للجنس وفي بعض الأحيان للدين.

أما الطبقة العامة من المجتمع فنكاد ـ إذا استثنينا بعض الشعراء والمغنين والمخنثين ـ نجهل أخبارها، ويظهر أن حياتها ظلت راكدة لم يجرفها تيار التطور الذي جرف الطبقة العليا، ومرجع ذلك في نظري إلى سببين:

١ ـ فقر مادي: لأن أكثر الأموال التي كانت تدّر على الدولة استثمرها من بعد الخلفاء الأرستقراطيون، وأنفقوها في اقتناء الدور والقصور والملابس الفخمة والجواري والمجوهرات، إلى غير ذلك من مظاهر الترف، بينما ظلت هذه الطبقة، وأعني بها الطبقة العامة، فقيرة معدمة.

٢ ـ فقر معنوي: لأن أفراد هذه الطبقة كانوا على درجة من الركود العقلي يصعب معها اعتناق تقاليد جديدة والتنازل عن القديمة. فليس من العجب إذاً أن لا تتطور حياتهم، وأن تُحاط بسحابة كثيفة من الغموض، وليس غريباً أن لا تستدعي اهتمام المؤرخين.

وظاهرة أخيرة نلمسها في ذلك العهد ألا وهي التطور السريع الذي أصاب الحياة الاجتماعية في شتى نواحيها، ولعل من أهم أسبابه اختلاط العرب بالأعاجم. فحاكاهم العرب عاداتهم وقلّدوهم بطرق معيشتهم ولهوهم لكنهم شطّوا أيّما شطط. ولو أنهم اعتدلوا فأبقوا من عاداتهم ما يصلح منها وأخذوا عن الغريب ما يلائم أمزجتهم ومحيطهم وطباعهم فقط لكانت حياتهم أفضل بكثير.

المصادر والمراجع

أ ـ الأصول العربية

القرآن الكريم.

الإبشيهي. المستطرف، بولاق ١٢٩٢ هـ.

ابن أبي ربيعة. تحقيق شوارتز، ليبزك ١٩٠١.

ابن الأثير. الكامل في التاريخ، ليدن ١٨٦٧ ـ ١٨٧٤.

ابن الجوزي. سيرة عمر بن عبد العزيز، القاهرة ١٣٣١ هـ.

ابن خلدون. المقدمة، بيروت ١٨٨٦.

ابن رشيق. العمدة، القاهرة ١٩٢٥.

ابن سعد. الطبقات الكبرى، ليدن ١٣٢٢ ـ ١٣٣٩ هـ.

ابن الطقطقى. الفخري في الآداب السلطانية، القاهرة ١٣١٧ هـ.

ابن عبد ربه. العقد الفريد، القاهرة ١٣٩٣ هـ.

ابن قُتيبة. عيون الأخبار، القاهرة ١٩٣٠.

ابن هشام. السيرة، شرح محمد العناني، القاهرة ١٣٣٠ هـ.

ابن هشام. السيرة، وستنفلد، غوتنجن ١٨٥٨.

الأخطل. الديوان، نشر الصالحاني، بيروت ١٨٩١.

الأزرقي. أخبار مكة، ليبزك ١٨٠٨.

الأصبهاني. الأغاني، بولاق ١٢٨٥ هـ. ودار الكتب ١٩٢٨.

البخاري. الصحيح، بولاق ١٢٩٦ هـ.

البلاذري. فتوح البلدان، ليدن ١٨٦٦.

البيهقي. المحاسن والمساوىء، القاهرة ١٩٠٢.

الثعالبي. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، المطبعة الحنفية، دمشق ١٣٠٢ هـ.

الجاحظ. البيان والتبيين، القاهرة ١٣١٣ هـ.

الجاحظ. التاج في أخلاق الملوك، القاهرة ١٣٣٢ هـ.

جرير والفرزدق. النقائض، تحقيق بيفن، ليدن ١٩٠٥ ـ ١٩١٢

الحموي، ياقوت. معجم البلدان، ليبزك ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠.

الحنبلي، مجير الدين. الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، بولاق ١٨٦٦ ـ ١٨٦٧ م.

السيوطي. تاريخ الخلفاء، بولاق ١٣٠٥ هـ.

الطبري. تاريخ الرسل والملوك، ليدن ١٨٧٩ ـ ١٩٠١.

المبرد. الكامل، ليبزك ١٨٧٤.

المسعودي. مروج الذهب، باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٦.

اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي، ليدن ١٨٩٣.

ب ـ الدراسات العربية المعاصرة

أمين، أحمد. فجر الإسلام، بيروت ١٩٦٩ .

جبور، جبرائيل. عصر عمر بن أبي ربيعة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٥ .

حتي فيليب. تاريخ العرب، مطبعة غندور بيروت ١٩٤٩ .

حسني، الحاج حسن. حضارة العرب في العصر الأموي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٤ .

الحوراني، جورج فضلو. العرب والملاحة في المحيط الهندي، دار الكتاب، القاهرة ١٩٤٩ .

زيدان، جرجي. تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩١٩ .

طوقان، فواز أحمد. الحائر بحث في القصور الأموية في البادية، عمان ١٩٧٩ .

عفيفي، عبد اللّه. المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، القاهرة ١٩٤٨ .

فروخ، عمر. تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايـين، بيروت ١٩٧٠ .

منجد، صلاح الدين. مأساة سقوط دمشق ونهاية الأمويين، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨١ .

الناطور، شحادة علي. دور الموالي في المجتمع الأموي في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بيروت ١٩٨٣ .

كرد علي. محمد. خطط الشام، دمشق ١٩٢٥ .

كرد علي. محمد. رسائل البلغاء، القاهرة ١٩١٣ .

ج ـ الدراسات الأجنبية

von Bercham, Max. «Au Pays de Moab et d'Edom», *Journal des savants,* Paris 1909.

Buhl, O. Récit sur «Madina», *Encyclopedia of Islam,* 1st ed., vol.1.

Creswell, K.A.C. *Early Muslim Architecture,* Oxford 1940.

Diez, E, «Mshatta». *Encyclopedia of Islam,* 1st ed., vol.3.

Farmer, H. *History of the Arabian Music,* London 1929.

Grabar, Oleg. *The Omayad Palace of Khirbat Al-Mafjar,* London 1955.

von Kremer. *The Orient Under The Caliphs* (Trans), Calcutta 1920.

Lammens, H. *Le Chantre,* Paris 1895.

Lammens, H. *Etudes sur le règne de Mo'awia* 1er, Beyrouth 1908.

Lammens, H. *Siècle des Omayades,* Beyrouth 1930.

Lammens, H. Récits sur «Taef», «Mecque», «Akik», *Encyclopedie de l'Islam,* 1er edition, vol.1.

Shehab, Emir Maurice. *The Omayad at Anjar,* Beyrouth 1963.

المحتويات

تقديم ٧

توطئة «من وحي الماضي» ١٠

المقدمة ١٣

الفصل الأول

١ ـ العائلة في الجاهلية ١٥

٢ ـ العائلة في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ١٨

٣ ـ العائلة في العصر الأموي ١٩

«أ» الزواج ١٩

«ب» المهر ٢٠

«ج» تعدد الزوجات ٢١

«د» التسري ٢٦

«هـ» الأولاد وتفضيل الذكور ٢٨

«و» الطلاق ٣١

الفصل الثاني

طبقات المجتمع ٣٤

١ ـ المسلمون ٣٥

«أ» المسلمون العرب ٣٥

١ ـ الخلفاء ٣٥

٢ ـ الخاصة ٣٦

٣ ـ الفقهاء وأهل الورع ٣٦

٤ ـ العامة ٣٧

«ب» الموالي وأصلهم ٣٧

«ج» العبيد ٤٢

«د» الأعراب ٤٥
٢ ـ أهل الذمة ٤٦

الفصل الثالث

الحياة العامة ٥٠
توطئة ٥٠
١ ـ عوامل التطور ٥٠
«أ» تدفق الثروة ٥١
«ب» الاحتكاك بالأعاجم ٥٢
٢ ـ مظاهر هذه الحياة ٥٣
«أ» العمران ٥٣
١ ـ بناء المساجد ٥٣
«أ» قبة الصخرة ٥٣
«ب» المسجد الأقصى ٥٥
«ج» المسجد الأموي ٥٧
«د» مسجد المدينة ٥٨
«هـ» تذهيب الكعبة المشرفة ٥٨
«و» مسجد الرملة ٥٩
٢ ـ بناء القصور ٥٩
«أ» قصر الخضراء ٥٩
«ب» قصر الرقط ٦٠
«ج» قصر عميرة ٦٠
«د» قصر المشتى ٦٠
«هـ» قصر الحير أو «الحائر» ٦٠
«و» قصر الرصافة ٦١
«ز» مدينة عنجر الأموية أو (عين الجر) ٦١
«ب» التأنق في المعيشة ٦٣
١ ـ التأنق في المآكل ٦٣

«أ» مآكل الخلفاء ٦٣
«ب» مآكل الخاصة ٦٤
«ج» الولائم ٦٥
٢ ـ التأنق في اللباس والهيئة ٦٧
«أ» التأنق عند الخلفاء ٦٧
«ب» التأنق عند الأشراف والخاصة ٧٠
«ج» التأنق عند الطبقات الأخرى ٧١
«د» التأنق عند النساء الشريفات ونساء العامة ٧٢
٣ ـ التأنق في الأثاث ٧٤
«ج» اللهو ٧٥
١ ـ الغناء ٧٦
«أ» لمحة عن الغناء القديم عند العرب ٧٦
«ب» الغناء في صدر الإسلام ٧٨
«ج» مصدر الغناء في العصر الأموي ٧٩
«د» الحجاز مهد الغناء ٨١
«هـ» الخلفاء والغناء ٨٨
«و» مجالس الغناء عند الخلفاء ٨٩
«ز» مجالس الغناء عند الخاصة ٩٤
«ح» الشعراء والغناء ٩٦
«ط» الفقهاء والغناء ٩٨
«ي» عامة الناس والغناء ٩٩
٢ ـ الشراب ١٠٠
«أ» تحريم القرآن الكريم للشراب ١٠٠
«ب» مجالس الشراب عند الخلفاء ١٠١
«ج» مجالس الشراب عند الخاصة ١٠٣
«د» الشعراء والشراب ١٠٥
«هـ» عامة الناس والشراب ١٠٦
٣ ـ الجواري ١٠٦

«أ» أصلهن ١٠٦
«ب» الرغبة في امتلاكهن ١٠٧
«ج» أثمانهن ١٠٨
«د» أثرهن في حياة الخلفاء ١٠٨
«هـ» أثرهن لدى سائر طبقات الشعب ١١١
٤ ـ الملاهي والألعاب ١١٣
«أ» الصيد والقنص ١١٤
«ب» السباق ١١٦
«ج» الشطرنج والنرد ١١٧
«د» الصراع والمهزام والكراج ١١٩
٥ ـ الأماكن التي تفشى فيها اللهو وأشهر الفساق ١١٩
«أ» المدينة ١٢٠
«ب» الطائف ١٢٤
«ج» مكّة ١٢٥
«د» أشهر الفساق ١٣٠

الفصل الرابع

مكانة المرأة العربية في العصر الأموي ١٣٥
توطئة: لمحة عن مكانة المرأة العربية قبل العصر الأموي ١٣٥
«أ» المرأة العربية في أقدم عصور الجاهلية ١٣٥
«ب» المرأة العربية قبيل الإسلام ١٣٦
«ج» المرأة العربية في عهد الخلفاء الراشدين ١٣٧
«د» مكانة المرأة العربية في العصر الأموي ١٣٧
١ ـ حياة المرأة الأموية الراقية ١٣٨
٢ ـ رغبتها في التشبيب بها ١٤٠
٣ ـ مواكبها في الحج ١٤١
٤ ـ اشتراكها في الحروب ١٤٢
٥ ـ السفور والحجاب ١٤٣

الخاتمة ١٤٨
لائحة المصادر والمراجع ١٥٠
الأصول العربية ١٥٠
لائحة الدراسات العربية المعاصرة ١٥١
لائحة الدراسات الأجنبية ١٥٢

هـذا الكِتَاب

في هذا الكتاب صورةٌ واضحة للمجتمع في العصر الأموي جَهِدَت المؤلّفة في تقصّي معالمها، فاستبعدت من مصادرها تملُّق بعض المؤرّخين ودَسَّ غيرهم ومبالغاتهم في ذكر مثالب الأمويّين، واعتمدت الدِّقَّة العلميّة معياراً لأحكامها بعيداً عن كل هوى أو غرضٍ شخصيّ.

يرصد الكتابُ معالِمَ مفصَّلةً للحياة في ذلك العصر، ويبحث في عوامل التطوّر التي مرّ بها المجتمع العربيّ من العصر الجاهليّ حتى العصر الأمويّ.

لقد كتبت المؤلفة كتابها على مدى فترة زمنية بدأت حين كانت طالبةً في الجامعة الأميركية منذ نيّفٍ وأربعين عاماً، ثم أعادت كتابته وأضافت إليه في التسعينات، فأتت بذلك على كلِّ ما كُتِبَ في الموضوع من مصادر ومخطوطات ومراجع استجدّت حتى يومنا هذا.

وفي هذا الكتاب - كما يقول الدكتور قسطنطين زريق - لَفْتٌ إلى سَعَـةِ الحياة الماضية وشمولها وضرورة اختراق ساحاتها كلها رغم ما يعترض البحث من عوائق ونواقص. وهو يرى أن هذه الرسالة تندرج في إطار الجهد المبذول من أجل إشاعة الوعي التأريخي الصحيح بوجه عام.



